نيكوس كزنتزاكيس



تصوُّف

(منقذو الآلهة)

ترجمة: سيد أحمد علي بلا

مقدمة المترجم

أدين بالشكر لكل من صوفيا كاوورا وخريستو اسكوبرا زميلي الدراسة والحياة في اثينا فلهما يرجع الفضل في ولوجي عالم كزنتزاكيس اللغوي الرحب .

داهمتني فكرة ترجمة «**تصوف**» عام ١٩٨٣ وهو العام الذي احتفل فيه اليونانيون بمرور قرن على ميلاد نيكوس كزنتزاكيس وربع قرن على وفاته . لذلك فان ترجمة هذا الكتاب للعربية تدخل ضمن ذلك الاطار الاحتفالي .واستطيع ان اقول ، في حدود علمي ، ان هذه الترجمة هي الاولى لكزنتزاكيس التي تتم من اليونانية الى العربية مباشرة ، اذ ان التراجم السابقة لاعماله مرت عبر الانجليزية ، وربما لم تتأثر اعماله التي ترجمت سابقا الى العربية خصوصا وانها روايات ، إلاّ ان طابع هذا الكتاب : «**تصوف**» نفسه هو الذي يفرض ضرورة ترجمته من اليونانية مباشرة ، **لأنه نص فلسفي - شعري** ، يجسد رؤيا كزنتزاكيس الاساسية التي عبر عنها في ما بعد من خلال اعماله الروائية .

نيكوس كزنتزاكيس معروف لدى قارئ العربية برواياته «زوربا اليوناني» و«المسيح يصلب من جديد» و «الاخوة الاعداء» وسيرته الذاتية «تقرير الى الجريكو» ، لكن أعماله تفوق الثلاثين عملا أدبيا تتوزع بين الرواية وادب الرحلات والسيرة الذاتية والترجمة والتاريخ والنقد الادبيين .

ولد نيكوس كزنتزاكيس في جزيرة كريت عام ١٨٨٣ وتلقى تعليمه في

جامعة اثينا ثم باريس على يد البروفسور برجسون . طاف كزنتزاكيس في بلدان اوربية كثيرة ، لكنه عاد واستقر في جزيرة «إيجنه» إبّان الحرب العالمية الثانية منقطعا للتأليف الادبي والفلسفي .

كتاب «**تصوف**» الذي يعود تخطيطه الاولي الى العام ١٩١٤ ، ربما مثل الرؤيا الأساسية لكزنتزاكيس الشاعر والمفكر معا . حينها كان كزنتزاكيس في الثلاثين من عمره ، وكان في زيارة للجبل المقدس «آيوس أوروس» بشمال اليونان يرافقه صديقه الشاعر سكيليانوس ، حيث امضيا ثلاثة اشهر كاملة متجوّلين بين أوديته . عموما كان لهذه التجربة أثرها المستقبلي على اعمال الكاتبين . أما الصياغة النهائية للكتاب فتمت في العاصمة الالمانية برلين مابين كانون الاول /ديسمبر عام ١٩٢٢ ونيسان/ ابريل ١٩٢٣ ، لكن الكتاب لم ير النور إلاّ في عام ١٩٢٧ .

إحدى السمات الاساسية للتأليف عند كزنتزاكيس هي كتابة المخطط الأولي للتجربة التي يروم تناولها ، ثم استعادتها بعد زمن لوضعها في صيغتها النهائية . ففي الفترة التي كان يعيد خلالها صياغة «تصوف» كان يدون المخطط الأولي لرواية عن بوذا لم يكملها إلاّ عام ١٩٥٦ . أما رواية «المسيح يصلب من جديد» التي كتبها عام ١٩٤٨ فهي مجرد تكثيف روائي لقصيدة بعنوان «المسيح» كان قد كتبها عام ١٩٢١ ، و رواية «زوربا اليوناني» التي كتبها مابين ١٩٤١ ـ ١٩٤٣ استلهمها بعد ملاقاته اليكس زوربا الحقيقي في منطقة البلوبونيز بجنوب اليونان عام ١٩١٧ .

وكما إن المبدع يتأثر بقدر ورموز عصره . فان كزنتزاكيس نفسه لاينكر تأثير نيتشه وبرجسون عليه ، لكنه يؤكد تأثير «اوديسياس» و «زوربا» عليه ، ويكتب سيرته الذاتية في شكل تقرير الى «الجريكو» ، ورغم انه ترجم فاوست جوته ، وجحيم دانتي ، وأهم كتابات نيتشه الى اليونانية ، كما ترجم الالياذة والاوديسا من اليونانية القديمة الى اليونانية الحديثة ، وكتب أوديساه الخاصة التي تتكون من ٣٣٣٣٣ بيتا والتي اعتبرها بمثابة «ملحمة القبيلة

البيضاء » ، إذ تبدأ من حيث انتهت أوديسا هوميروس ، ورغم كل هذا لا يبدو انه كان يحاول ان يكون هوميروس عصره بقدرما كان ينحو ان يكون أوديسياس جديد ، وان يتابع رحلة ملك جزيرة ايثاكي الى عوالم اخرى . ان المسيرة والطريق الصاعد لاستشراف آفاق أوسع هي ملامح الأوديسيا ، التي تتركز في رؤيا كزنتزاكيس الشاب لتقوده الى الاكتشافات الجديدة نحو الجذور والاوراق .

« **تصوف** » هو المخطط الاولي لمسيرة الاكتشافات الموعودة ، وهو البذرة التي نبتت في مؤلفاته الروائية والشعرية اللاحقة ، لذلك يمكن اعتبار هذا الكتاب « دليلا » يقود القارىء عبر عوالم كزنتزاكيس الروائية ، وفي الوقت نفسه يمكن النظر اليه كمحطة اساسية لقياس تطوره اللاحق .

مرحلة « **تصوف** » مثلت حقبة الارهاصات الكبرى لدى كزنتزاكيس ، إذ كان يجاهد اثناءها لكتابة رواية شعرية عن بوذا لم تكتمل إلاّ في سنوات حياته الاخيرة . وبعد أن أكمل « تصوف » في برلين غادرها الى ايطاليا قاصدا منطقة القديس فرنسيس بالذات ليكتب عنه في ما بعد كتاب « الفقير الى الله » .

رؤيا كزنتزاكيس الشاب الواردة في « **تصوف** » ليس لها امتداد تجريدي آخر ، فهو لم يحاول مثل هذا النوع المتناسق من الخطاب اللاهوتي ، وان توزعت مقاطع كاملة منه في اعماله اللاحقة . لقد ظل في ما بعد ملتصقا بالتجربة ، يتعلم ويعلم منها . وكما اسلفنا إن رواية « زوربا اليوناني » الذائعة الصيت استندت الى تجربة لقاء كزنتزاكيس بزوربا الحقيقي على السواحل الجنوبية لليونان حيث كان زوربا يعمل في قطع الاخشاب . وقال كزنتزاكيس عن تلك التجربة « لقد تعلمت من زوربا حب الحياة » . اما رواية « الكابتن ميخايلي » فهي قصة حياة والد كزنتزاكيس ، بينما سجل في « الاخوة ـ الاعداء » معاناته الشخصية حول الحرب الاهلية اليونانية .

كان كزنتزاكيس أمينا لرؤاه وتجاربه بقدر صمود هذه الرؤى والتجارب

أمام التساؤل . فالرجل الذي عاش في عصر عاصف اجتاحته عدة حروب «الحربان العالميتان الاولى والثانية والحرب الاهلية اليونانية» ، وشهد احتلال الايطاليين والالمان لبلاده ، ظل أمينا في دعوته للسلام وسط ركام النصف الاول من القرن العشرين . وقد خصه مجلس السلم العالمي بجائزة السلام لعام ١٩٥٦ . ويذكر الصحافي اليوناني اسبيروس اليكسيو في مقال له نشرته صحيفة «كل يوم» بمناسبة الذكرى المئوية لميلاد كزنتزاكيس ان الكاتب اليوناني كان يتراسل مع الزعيم الهندي المهاتما غاندي داعية اللاعنف .

وحين وضع الفاتيكان كتابه «الاغواء الاخير للمسيح» ضمن القائمة السوداء ، كتب لهم قائلا «ايها الآباء المقدسون لقد قدمتم لي اللعنة ، أما انا فأقدّم لكم الشكر . أتمنى ان يكون ضميركم صافيا كضميري ، وان تكونوا اخلاقيين ومتدينين مثلي» .

على قبر كزنتزاكيس بهراكليون عاصمة كريت نحتت العبارات التالية : «لا أطمع في شيء... لا اخاف من شيء... أنا حر» . كان هذا شعاره الذي أخذه عن قصة هندية ، وضمنه روايته «تودارابا» . وتقول القصة ان هنديا كان يقود قاربه مقاوما تيار النهر الجارف الذي يدفع القارب نحو شلال صخري ، وبعد ان استنفذ كل طاقته في مقاومة التيار ترك مجذافيه وبدأ يغني مرددا «آه... فلتكن هذه الأغنية حياتي... أنا لا أطمع في شيء... ولا أخاف من شيء... أنا حر» .

«الذي لا يساوم» عنوان كتاب هيلين كزنتزاكيس عن زوجها نيكوس . أجل لم يساوم وانما سار بقاربه الى اقصى حدود طاقة الإنسان ، وظل يكتب ويكتب حتى وهو على فراش الموت ، كما تقول هيلين في مقدمة كتابه «تقرير الى الجريكو» .

تطمح هذه الترجمة الى المساهمة في التعريف بعنفوان كزنتزاكيس الشاب من خلال هذا النص الفلسفي الشعري «**تصوف**» الذي يعتبر بحق ملحمة للتساؤل .

كما تتوخى بعد قرن ونيّف على ميلاده ، وأربعة عقود على وفاته التذكير بالروح «القلقة المتمردة» - روح كزنتزاكيس التي تخطت الحدود الضيقة للغة اليونانيّة وفاضت على اللغات الأخرى بأبداعها المتنوّع .

تقول هيلين كزنتزاكيس عن «**تصوف**» : «حين اعطاني نيكوس كتاب تصوف عام ١٩٢٤ لم أندهش لدرجة الجنون ، لكنني مازلت اعتبره المفتاح الأساسي لكل اعماله» .

المترجم

تحيَّة إلى بانديللي بريفلاكي

(نيكوس كزنتزاكيس)

مدخل

نأتي من هاوية مظلمة وننتهي الى مثيلتها . أما المسافة المضيئة بين الهاويتين فنسميها الحياة .

لحظة ان نولد تبدأ رحلة العودة . الانطلاق والعودة في آن . كل لحظة نموت . لهذا جاهر كثيرون إن هدف الحياة هو الموت .

ما أن نولد حتى تبدأ محاولاتنا في ان نخلق ونبتكر ، ان نجعل للمادة حياة . كل لحظة نولد . لهذا جاهر كثيرون إن هدف الحياة الدنيا هو الخلود .

في الاجسام الحية الفانية يتصارع هذان التياران :

الصاعد ، نحو التركيب ، نحو الحياة ، نحو الخلود .

الهابط ، نحو التحلل ، نحو المادة ، نحو الموت .

هذان التياران ينبعان من أغوار الجوهر البدائي . الحياة تفاجئ في البدء ، تبدو وكأنها خارجة على القانون ، كأنها طبيعة مضادة ، كأنها رد فعل على الينابيع المظلمة الخالدة . لكننا نشعر في اعماقنا أن الحياة هي الاخرى فوضى وفوران لانهائي للكون ، وإلا فمن أين تأتي تلك القوة التي تفوق طاقة البشر ؟ تلك القوة التي تقذف بنا من الغيب إلى الميلاد ثم تشد أزر كفاحنا نباتات وحيوانات وبشراً .

هذان التياران كلاهما مقدس .

واجبنا إذن أن ندرك الرؤيا التي تستطيع ان تستوعب هذين الاندفاعين الهائلين ـ الفوضويين واللانهائيين ، وتجانسهما ، وأن نضبط بهذه الرؤيا فكرنا وسلوكنا .

الواجب الأول:

أُحدّق في العالم بوضوح وهدوء ثم أقول :

كل هذا الذي أراه وأسمعه وأتذوقه وأشمه وألمسه هو من صنع عقلي . الشمس تصعد وتهبط داخل جمجمتي ، من أحد صدغيّ تشرق وفي الآخرى تغيب .

في عقلي تلمع النجوم . الأفكار والناس والحيوانات ترعى داخل رأسي الفاني . نحيب وأُغنيات تملأ تجاويف أذني اللولبية . فيضطرب الهواء للحظة ، ينطفئ العقل فيختفي كل شيء... السموات والارض .

يهتف العقل «أنا وحدي الموجود» .

«في باطني تعمل الناسجات الخمس ، ينسجن ثم ينقضن نسيج الزمان والمكان ، الفرح والحزن ، المادة والروح ، كل الاشياء تجري من حولي وكأنّها نهر ، تدور مندفعة ، الوجوه تنساب كالماء وتصطخب الفوضى ، لكنني أنا العقل أتقدم بصبر وبسالة ، هادئا وسط الدوّار ، ولكي لا أتدحرج نحو الهاوية ألتصق بالدوار وأترك آثاراً . أُسقط جسوراً ، وأفتح طُرقًا ، وأُسّس للهاوية .

ببطء وبجهد شاق أتحرّك بين الظواهر التي أُنجبها . أُميزها بطواعيّة وأخلطها بقوانين ثم أُخضعها لإحتياجاتي العمية الشاقة . أضع أساسا للفوضى ، أعطي للفوضى وجهاً هو وجهي .

لا أدري ما إذا كان ثمة جوهر خفي ومتعالٍ يعيش ويتحرك خلف الظواهر . ولكي لا أتساءل أعتبره لا يعنيني . إني انجب الظواهر بطواعية ، أرسم بألوان عديدة حجابا خياليا أمام الهاوية . لا تقل لي أزل الحجاب لأرى اللوحة . فالحجاب هو اللوحة نفسها .

أنا عامل الهاوية . أنا المتفرج على الهاوية . أنا النظرية والممارسة . أنا القانون . خارجي لا يوجد أيُّ شيء على الإطلاق .

عليك أن تدرك وأن تقبل حدود العقل الإنساني بلا محاولات عصيان لاجدوى منها ، وعليك ضمن هذه الحدود الصارمة أن تعمل بلا شكوى وبلا توقف ـ هذا هو واجبك الاول .

عليك ان تشيِّد ببسالة وقوة ، على الفوضى المتحركة (تَقاةْ)* العقل شديدة الاستدارة ، وشديدة الإضاءة ، لكي تدرس وتميز كل شيء كما يدرس رب الاسرة السنابل ويفرز الحبوب من الروث .

عليك أن تميِّز بوضوح ، وتتقبل بشجاعة هذه الحقائق المرّة ذات الخصوبة والقيمة الانسانية ، والتي تعتبر قطعة من لحم جسدنا :

ـ بامكان عقل الانسان ان يدرك الظواهر فحسب ، لكنه عاجز أبداً عن ادراك الجوهر :

ـ انه عاجز حتى ان يعقل كل ظواهر المادة ، وانما يستطيع فقط ان يعقل بعض ظواهرها .

ـ وبتحديد أكثر : انه لايستطيع حتى ان يعقل ظواهر المادة وانما فقط يستطيع ان يعقل العلاقات التي تربطها ببعضها البعض .

ـ إن العلاقات التي تربط بين ظواهر المادة ليست مستقلة فعلا عن الانسان . انما هي من صنع البشر ايضاً .

وهي ليست أقوى ما ينجب الانسان ، لكنها الأكثر مساعدةً له في ضروراته العملية والعقلية .

ضمن هذه الحدود يظلُّ العقل هو السلطان الشرعي الوحيد . وليست ثمة سلطة أُخرى عداه في ربوع مملكته .

أعترفُ بهذه الحدود . أنصاعُ لها بصبر وشجاعة وحب . وفي المنطقة الواقعة داخل هذه الحدود أُطلق العنان لكفاحي وكأنّي حر . أطوّع المادة .

---

* التقاة : قطعة أرض صلبة ومستديرة يدرس عليها القمح بعد حصاده لتفرز الحبوب عن غيرها . (المترجم)

أجبرها على أن تكون موصلاً جيداً لعقلي . أفرح بالنباتات والحيوانات والناس والآلهة وكأنهم أبنائي . أشعر بالكون كله يتجمع من فوقي ثم يتبعني وكأنه جسد .

في لحظات مفاجئة وعصيبة يلمع في داخلي صوت يقول : «هذا كله مجرد لعبة فاسدة لا غاية لها ، بلا بداية وبلا نهاية وبلا معنى» ، لكنني أوصل نفسي سريعا بعجلة الضرورة ، فيبدأ الكون كله يدور دورته حولي من جديد .

عليك بالانضباط . انه الفضيلة العليا ، وبه وحده تتكافأ الرغبة بالقوة ، وتثمر محاولة الانسان .

وبذلك تستطيع بصفاء وشدة ان تحدد السلطة المطلقة للعقل على الظواهر ، وعجز العقل في ما وراء الظواهر ، قبل ان تتقدم للخلاص وإلاّ فلن تجد للخلاص سبيلاً .

الواجب الثاني:

لا أقبل الحدود ولا تسعني الظواهر . إنّي أختنق! فلتعش هذه المعاناة العميقة الشاقة . هذا هو الواجب الثاني .

العقل يتكيّف ، فله القدرة على الصبر ويعجبه اللهو ، لكن القلب يتوحّش ولا يقبل لهو العقل . انه يقفز ويصطخب لكي يمزق شباك الضرورة .

ما قيمة ان أُهيمن على الارض والماء والهواء ، وان انتصر على الزمان والمكان ، وان ادرك بأيّ القوانين تتناغم وتأتي المرّة تلو الاخرى هذه الصورة المنعكسة على المرايا ، التي تصعد من صحراء العقل الملتهبة ؟

أشتاق الى شيء واحد هو : ان ادرك ما الذي يختبئ خلف الظواهر . ما هو هذا السر الذي ينجبني ثم يقتلني ؟ وهل خلف التيار المنساب والمرئي للعالم يختبئ حضور ثابت لامرئي ؟

اذا كان العقل لا يستطيع وليس من شأنه أن يحاول التقدم خارج حدود بوّابة الخروج البطونية اليائسة فهل يستطيع القلب ؟!

بعيداً... بعيداً... بعيداً في ما وراء الانسان ، أبحث عن السوط اللامرئي الذي ينهال عليه ويدفعه للكفاح . وفي ما وراء الحيوانات أجهد نفسي لأرى ذلك البدائيَ الذي ينافح صانعاً ومهدماً ، وهو يسكب مرّة أخرى الأقنعة التي لا تحصى لتنطبع على تيار اللحم .

وفي ما وراء الحيوانات أحاول أن أُميّز آثار الخطى الأُولى للامرئي على الوحل الطيني .

صوت في داخلي يصيح آمراً :

احفر . ماذا ترى ؟

ـ بشراً وطيوراً ، مياهاً وحجارة .

احفر ايضا... ماذا ترى ؟

ـ افكاراً... واحلاماً... بروقا... وخيالات .

احفر أيضا . ماذا ترى ؟

ـ لا أرى شيئاً! ثمة ليل عاصف غليظ كالموت ، لعلّه الموت .

احفر ايضا!

ـ آه لا أستطيع ان أعبر شبه الجدار المظلم! أسمع أصواتاً ونحيباً ، أسمع حفيف أجنحة آت من الضفة الأُخرى .

لا تبك! لا تبك! إنها ليست من الضفة الأُخرى . كل هذه الأصوات والنحيب وحفيف الأجنحة هي قلبك .

بعيداً عن العقل ، وفي الهاوية المقدسة للقلب أتوازن مرتجفاً .

إحدى قدميَّ تحط على تراب حقيقي ، والأُخرى تبحث عبر الظلام عن الهاوية .

أستشعر خلفي كل هذا الجوهر المكافح يصارع من خلف الظواهر ليلتحم بقلبي . لكن الجسد يقف حائلا بيننا ليفرّقنا ، والعقل يقف حائلا بيننا ليفرّقنا .

ما هو واجبي ؟ واجبي ان أُحطم الجسد ، أن أتدفّق وألتحم باللامرئي ، أن يصمت العقل لكي أسمع صياح اللامرئي .

أسير على حافة الهاوية وأرتجف . هناك صوتان في داخلي يتهدّجان .

يقول العقل : «لماذا نتوه بحثاً عن المستحيل ؟ يجب ان نعترف بحدود الانسان داخل السور المقدّس للحواس الخمس » .

لكن صوتا آخر بداخلي ولنسمّه الحاسة السادسة أو لنسمّه القلب يقف معترضاً ويصيح :

«لا ، لا ، لا تعترف أبداً بحدود الانسان! عليك ان تحطم الحدود! ان تنكر ماتراه عيناك! ان تموت وانت تردد لا يوجد موت » .

يرد العقل : «عيني صافية وخالية من كل أمل ، ترى كل شيء ، ترى الحياة لعبة بل مجرد عرض يقدّمه ممثلو مسرح جسدي الخمسة .

أتابع العرض بمتعة وغرابة تفوق الوصف ولكنني لا أملك بساطة القرويّ لكي أصل الى يقين وأصعد على المسرح مشاركاً في الكوميديا الدامية .

أنا الحاوي صانع المعجزات الذي يجلس ساكنا عند تقاطع طرق الحواس ، يرى العالم يولد ثم يغيب . يرى الجموع تتحرك وتصيح في دروب اللاجدوى المتعددة الألوان

«أيُّها القلب... أيُّها القلب الفج... اهدأ وانصع» .

لكن القلب ينتفض ويصرخ :

«أنا القرويُّ أقفز على المسرح وأتدخل في مسيرة العالم!» .

لا أزن ولا أقيس ولا أتكيف . أتبع دقاتي العميقة . أسأل وأكرر السؤال طارقاً أبواب الهاوية : من الذي يبذرنا في هذه الارض دون إذن يطلب منّا ؟ من الذي يقتلعنا من هذه الارض دون إذن منّا ؟

أنا مخلوقٌ مؤقَّتٌ وضعيف . مصنوع من طين وأحلام لكني أُدرك ان في داخلي تصطخب كل قوى الكون .

أريد للحظة واحدة ، وقبل ان تحطّمني هذه القوى ، ان أفتح عينيّ فأراها أمامي . هذا هو هدفي الوحيد في الحياة .

أريد ان أجد مبررا لكي استمر على قيد الحياة ، ولكي أتحمل المشهد اليومي المرعب للمرض والقبح والظلم والموت .

بدأت من نقطة مظلمة هي الرحم ، وأسير نحو نقطة مظلمة أخرى هي القبر . إحدى القوتين تقذفني من هاوية مظلمة والأخرى تسحقني ، بلا انقطاع ، في هاوية مظلمة .

أنا لست ذلك المذنب الذي سقود النبيذ لكي لا يتلوث عقله ، فانا اقفز على الممر الواقع بين الهاويتين السحيقتين بذهن صاف ومتيقظ .

أكافح لكي اكون قادرا على هز رأسي للرفاق محييا قبل ان أموت ، وأن

أمد يدي لهم مصافحا ، ولتنحل عقدة لساني فألقي عليهم قولا بليغا أحدثهم فيه عن تصوري لهذه المسيرة وعن تكهناتي بالاتجاه الذي تسير فيه ، وعن مدى حاجتنا جميعا لضبط ايقاع خطواتنا وقلوبنا على بعضها البعض .

كيف أتوصل الى شعار ، الى كلمة سر متفق عليها كما يفعل المقدمون على تنفيذ مؤامرة ؟ كيف أتوصل الى قول بسيط أقدّمه للرفاق ؟

أجل... ان هدف هذه الارض ليست الحياة وليس الانسان . فلقد عاشت بدونهما وستعيش لاحقا بدونهما . انهما الشرارات المؤقتة لدورانها العنيف .

فلنتحد ونتماسك بقوة ، ولتلتحم قلوبنا ونبدع . وبقدر ما ستستمر هذه الارض محتفظة بحرارتها ، سنكون في مأمن من مفاجآت الزلازل والبراكين والثلوج والشهب . فلنبدع عقلا وقلبا على هذه الارض ، ولنعط معنىً انسانياً لكفاح التسامي لما بعد الانساني . هذه المعاناة هي واجبك الثاني .

الواجب الثالث:

العقل يتكيَّف يود لو يعبِّئ سجنه ،عرشه بانجازات عظيمة ، وان ينقش على الجدران مآثر بطوليَّة ، ويرسم على السلاسل أجنحة الحرية .

القلب لا يتكيَّف . ثمة أياد تطرق أبواب سجنه من الخارج ، وأصوات عشق تتسرب الى مسامعه عبر الريح ، فيستجيب القلب وهو مفعم بالأمل ، مفجرا السلاسل ، وفي احدى توهجاته تبدو له السلاسل وقد تحوَّلت الى أجنحة . لكن سرعان مايسقط القلب مرة اخرى دامياً . وقد فقد الامل وبدأ يتملكه الخوف الكبير .

طوبي لتلك اللحظة...

أترك وراءك القلب والعقل وتقدم الى أمام وأخط الخطوة الثالثة .

عليك أن تنجو من البساطة الفجة للعقل الذي ينظِّم ويأمل في السيطرة على الظواهر .

عليك ان تنجو من رعب القلب الذي يبتغي ويأمل العثور على الجوهر .

انتصر على العقبة الأخيرة الأكثر اغراءً : الأمل . هذا هو واجبك الثالث .

نحن نحارب لأنا نستمتع بذلك . نغني حتى إذا لم نجد أذنا تصغي لغنائنا . نعمل حتى إذا لم نجد رب عمل يدفع لنا أجرنا اليومي عند الأصيل . نحن لانعمل للغير . إذ نحن أرباب العمل . ان كروم هذه الأرض ملك لنا . انها لحمنا ودمنا . نحن الذين نحفر لها التربة ، ونشذب فروعها ونجني عنبها ونعصره ، ونشرب النبيذ . ونغني ونبكي ، وتصعد الى رؤوسنا أفكار وأحلام .

في أيِّ مواسم دورة حقل الكروم اختار لك الحظ ان تعمل ؟ في موسم نحفر أم في موسم جني العنب أم في موسم الاحتفالات ؟ انها جميعا شيءٌ وحد .

أحفرُ وأبتهجُ بكل دورة . أغني رغم عطشي وإرهاقي منتشيا بنبيذ لمستقبل .

أحمل الزجاجة المليئة وأعيش ثانية الجهد الذي لحق بجدّي وبجدّه من قبله ، وعرق العمل يتصبّب منسابا على الجمجمة السكرى .

أنا سلّة مليئة باللحم والعظام والدم والدموع والعرق ، بالرغبات والرؤى .

أعدو للحظة في الريح ، أتنفس ، يخفق قلبي ، يضيء عقلي ، وفجأة تنفتح الارض وأضيع .

داخل سلسلتي الفقريّة الفانية يصعد ويهبط تياران ، وفي احشائي رجل وامرأة يتعانقان . يتحابان ويتباغضان . يكافحان .

يصيح الرجل متهيّجاً «أنا المدرار الذي يودُّ ان يمزّق النسيج ، وان يقفز خارج منسج الضرورة . انا الذي يريد ان يتجاوز القانون وأن يحطّم الأجساد وان ينتصر على الموت . أنا البذرة» .

يرد صوت آخر منطقي وعميق ، صوت أُنثويُ هادئٌ وواثق : «أجلس واضعة احدى قدمي على الاخرى ، وأدع جذوري تذهب عميقا في القبور . أتقبّل البذرة وانا ساكنة بلا حراك ثم أرعاها . أنا كُلّي حليب وضرورة .

أتشوّق للرجوع الى الوراء . للهبوط الى الحيوان ، والهبوط أكثر وأكثر الى الشجرة ، والى اعماق القبور والتربة ، وألّا اتحرك الى الامام . اني اقبض على الانفاس وأحبسها ولا أدعها تنطلق . أكره الشعلة التي تتصاعد . أنا الرحم» .

أصيغ السمع للصوتين فكلاهما لي . أفرح بهما ولا أرفض أيّاً منهما .

قلبي رقصة للحواس الخمس . قلبي رقص مضاد نقيض للحواس الخمس .

قوى لاتحصى ، مرنيّة وخفيّة ، تفرح وتتبعني حين أتقدم صاعداً بمشقة عكس التيار العظيم .

قوى لاتحصى ، مرنيّة وخفيّة ، تهدأ وتسكن حينما أتراجع الى الوراء ، هابطا عائدا الى التراب .

ينهمر قلبي . لا أطلب بداية العالم ولا نهايته . أتبع إيقاع قلبي الرهيب وأذهب .

ألق التحية على الاشياء كلها في كل لحظة . أرسل نَظَرك بتؤدة ووله ثم قل : الوداع .

حدّق في ما حولك : كل هذه الاجساد التي تراها ستتحلّل . لايوجد خلاص .

أنظر : يعيشون ، يعملون ، يحبون ، يأملون .

انظر مرة اخرى : لايوجد أيُّ شيء!

أجيال من البشر تصعد من التراب ثم تسقط ثانية في التراب .

تتجمع فضيلة الانسان ومحاولته ، تكبر وتتصاعد حتى السماء .

الى اين نحن ذاهبون ؟ لا تسل! أصعد وأهبط . لا توجد بداية ولاتوجد نهاية

توجد هذه اللحظة الحاضرة ، مليئة بالمرارة ومليئة باللذة .

أفرح بها كاملة .

الحياة خير والموت خير ، والارض مستديرة كصدر أنثوي في قبضتيَّ القديرتين .

أمنح نفسي كل شيء ، أحب ، أتألم ، أكافح . عالمي يمتد لأبعد مما يتخيل العقل .

قلبي سر عميق وغامض .

أيتها النفس ، لو تستطيعين ، أصعدي على الامواج الصاخبة واحتوي البحر كله بنظرة من عينيك . سيطري على قُوى إدراكك حتى لاتتزعزع وغوصي مرّة أُخرى في عمق البحر وواصلي الكفاح .

جسدنا سفينة تسبح في مياه عميقة زرقاء .

ما هو هدفنا : ان تتحطم سفينتنا!

لأنَّ المحيط الاطلسي مليء بالشلالات ، فإن الأرض الجديدة توجد فقط في قلب الانسان . وذات لحظةٍ مفاجئةٍ ستغرق أنت وسفينة العالم ، في إحدى لدوامات الصاخبة بشلال الموت .

واجبك ان تبحر بهدوء وشجاعة ، وبدون أمل نحو الهاوية ، وأن تقول : لا يوجد أيُّ شيء! لايوجد ايُّ شيء! لاتوجد حياة ولايوجد موت!!

أحدّق في المادة والعقل وهما يتحركان ، وهما يلتحمان ، وهما يتناسلان ، وهما يغيبان كأنهما أطياف من العشق لا وجود حقيقياً لها ثم اقول : هذا ما أريده .

أعرف الآن أنني لا أطمع في شيء ولا أخاف من شيء . لقد تخلصت من العقل ومن القلب وصعدت الى أعلى . أنا حر . هذا ما أبتغيه ولا أبتغي شيئاً عداه فلقد كنت أطلب الحرية .

المسيرة:

تفاجئني صيحةٌ قويةٌ تأتي من داخلي : «النجدة»

من الذي يصيح ؟

أجمع قواك وارهف السمع . قلب الانسان ليس إلا مجرّد صيحة . التصق بصدرك لكي تسمعها . شخص ما يكافح بداخلك هو الذي يصيح .

ان واجبك في كل لحظة ، ليلاً ونهاراً ، في الفرح وفي الحزن ، وفي خضم مشاغل الحياة اليومية ، هو ان تميِّز هذه الصيحة ، متهدّجة كانت أم متماسكة ، كيفما صدرت عنك . سواء كنت مبتهجاً أم باكياً ، فاعلاً أم مفكراً . وأن تكافح لكي تحس بهذا الذي يصيح وهو يواجه الخطر ونجنِّد أنفسنا لتحريره .

في اقصى حالات فرحنا نسمع بداخلنا أحداً يصيح : «إني أتألم ، أريد أن أفر من فرحك . انني أتميَّزُ من الغيظ» .

في أقصى حالات يأسنا نسمع بداخلنا أحداً يصيح : «لست يائساً . أني أكافح . أقبع فوق رأسك . أطلُّ من جسدك . أنبثق من الارض ، لا تسعني العقول ولا الأسماء ولا الأفعال» .

من اكثر فضائلنا أريحية ينبري أحد الناس واقفاً ثم يصيح بيأس :

«ضيقةٌ هي الفضيلة ، اني لا أستطيع أن أتنفس . الجنة ضيقة وصغيرة ، إنها لاتسعني . إلهكم يبدو كإنسان . أنا لا أريده!»

أسمع الصيحة المتوحشة وأنهض واقفاً ، ولأول مرة تأخذ المعاناة الصاعدة في داخلي شكلاً لصوت إنسان حقيقي… تواجهني مباشرة ثم تناديني بكل

وضوح باسمي وباسم أبي وباسم سلالتي .

هذه هي اللحظة العظيمة الحاسمة . إنها شعار المسيرة . فلا تبدأ اذا لم تسمع هذه الصرخة وهي تخترق أحشاءك!

تبع مرتبتك في المقام الأول وفي المقامين الثاني والثالث من التهيّؤ بصبر وضعة .

أرهف السمع أثناء نومك وخلال ممارسة الجنس وفي الابداع ، وخلال فعل من فعالك الطوعية ، أو اثناء صمتك صمتا عميقا يائسا ، فلربما تسمع فجأة هذه الصيحة وتتقدم إلى أمام .

كان قلبي يهدر حتى تلك اللحظة ، يصعد ويهبط مع الكون . لكنني حين بغتتني الصيحة إنقسمت احشائي والكون الى معسكرين .

بداخلي شخص يواجه الخطر . رفع يديه صائحا يستغيثني : «أنقذني» .

بداخلي شخص يتقدم صاعداً ، يسير وهو يصيح : «النجدة!»

أيٌ من الطريقين المقدسين عليّ أن اختار ؟ وفجأة أدرك أن حياتي كلها بل وحياة الكون باكمله مرتبطة بقراري هذا .

من بين الطريقين أختار الطريق الصاعد . لماذا ؟ ليس لأيّ حجج عقلية أو يقين ، فعند تلك اللحظة الحاسمة أستوعب كم هو غير خبير هذا العقل ، بل وكل القناعات الصغيرة للانسان .

أختار الطريق الصاعد لأن قلبي يدفعني نحو هذا الاتجاه . يناديني قلبي : «إلى الأعلى... الى الأعلى» فأتبعه بكل ثقة .

أشعر إن هذا ما تطالبني به تلك الصيحة البدائيّة الرهيبة . أقفز إلى جانبها وأطابق قدري بها .

بداخلي يكافح شخص ليرفع حملاً ثقيلاً ، يراجع حساب الجسد والعقل منتصراً على العادة والكسل والضرورة .

لا أدري من أين يأتي ولا إلى أين يذهب . أتبع خطاه داخل صدري الفاني . أرهف السمع إلى لهاثه وأقشعر حين أتحسّسه .

من هو ؟ أنصب له أذني . أضع علامات . أستنشق الهواء ثم أصعد الى أعلى . أبحث في اتجاه الاعالي . ألهث . ابدأ المسيرة السرية الرهيبة .

١) السلّم الأول: أنــا

أنا لست طيبا ، ولست نقيا ، ولست مطمئنا . السعادة لا تطاق والشقاء لا يطاق . أنا مليء بهمهمات ذعر وظلام . أتدفق دموعاً ودماءً داخل زريبة لحمي الساخنة هذه .

أخاف أن أتكلم . أتزيّن بأجنحة مزيفة . أصيح وأغنّي وأبكي لكي لا أخنق صيحة قلبي القاسية .

أنا لست الضوء . أنا الليل ، لكن شعلة تربض ما بين أحشائي وتأكلني . أنا الليل الذي يأكله الضوء .

أخاطر يائسا مترنحا في الظلام . أحاول ان أقفز من نومي ، وان أنتصب واقفا لبعض الوقت ، قدر ما أستطيع .

نَفَسٌ صغير ومتمرد ، يكافح في داخلي يائسا علّه ينتصر على السعادة ، وعلى الارهاق وعلى الموت .

أمرِّن جسدي كحصان محارب ، أحافظ عليه بسيطاً وقوياً وطيّعاً . إني أقسو عليه وأواسيه ، إذ ليس لي حصان سواه .

أحافظ على عقلي يقظا وصافيا وحاداً . أثق في ان يكافح بلا انقطاع هذا النور الذي يلتهم الظلام ، إذ ليس ثمة معمل غيره يستطيع ان يحوّل الظلام الى نور .

أحافظ على قلبي متوهجا ، شجاعا ، متوتراً . أحسُّ بكل الاضطرابات والتناقضات في قلبي ، بمباهج الحياة ومنغصاتها ، لكني أكافح من أجل ان أطوّعها لايقاع الكون الذي يتصاعد . الصيحة في داخلي تطلق نداءً للتجنيد ،

تصيح : «أنا الصيحة . أنا السيد إلهك! أنا لست ملجأً ولا داراً ولا أهلاً . أنا لست الأب ولا الإبن . أنا لست الروح . أنا قائدك! أنت لست خادما لي ولست لعبة بين كفيَّ . أنت لست صديقي ولست إبني . أنت رفيقي في المعركة . عليك ان تحمي المضايق التي كُلفت بحمايتها . وألا تتركها للأعداء . وواجبك الذي تستطيع ان تؤديه هو ان تكون بطلا في موقعك . عليك أن تحب المخاطر . «ما هو الشأن الاكثر صعوبة ؟ »... «هذا ما أطلبه منك!» أيُّ الطرق تسلك ؟ الصاعد الوعر... هذا هو طريقي أيضا فاتبعني!

تعلّم ان تطيع . وحده الذي يذعن لإيقاع أعلى من إيقاعه يستطيع ان يكون حراً .

تعلم ان تصدر الأوامر . وحده الذي يستطيع ان يأمر يستحق ان يمثلني على هذه الارض .

عليك ان تحب الواجب ، وأن تقول : عليَّ أنا وحدي تقع مسؤولية إنقاذ الارض . وإذا لم تُنقذ فأنا المذنب .

عليك ان تحب كل شخص بمقدار مساهمته في الكفاح ، وألاّ تبحث عن أصدقاء وإنما عن رفاق!

عليك ان تكون متوتِّراً وممتعضاً وغير متكيِّف أبداً . وحين تتملكك إحدى العادات عليك ان تحطمها . ان أكبر الأخطاء هو الاستسلام للرضا .

إلى أين نحن ذاهبون ؟ هل سننتصر أبداً ؟ في أيِّ إتجاه تنحو كل هذه المعركة ؟

إلزم الصمت! فالمحاربون لايتساءلون أبداً .

أنحني وأُرهف السمع الى هذه الصيحة القتالية التي تنبعث من أحشائي . أبدأ في تصور وجه القائد ، أتحقَّق من صوته ثم انصاع الى أوامره الشاقة بفرح ورهبة .

أجل... أجل... أنا لاشيء... أنا مجرد نعومة فسفورية على المروج المبتلة . دودة تعسة تطلق صفيراً وتحب ، تصيح وتتكلم لساعة أو لساعتين عن أجنحة ما ، وبعد

ذلك تغلق فمها بالتراب . هذه هي الاجابة الوحيدة التي تقدمها القوى المظلمة .

لكن الصيحة العظمى الخالدة بداخلي تنادي قائلة : ما الذي تريده ولا تستطيع ان تبلغه ؟ أنا واثق بأنني جزءٌ من الكون المرئي واللامرئي . نحن شيءٌ واحد... القوى التي تعمل بداخلي ، والقوى الاخرى التي تدفعني لأعيش ، والقوى التي تدفعني لأموت ، هي بالتأكيد ، قواك أنت أيضا .

أنا لست جسداً معلقاً لا جذور له في العالم . أنا ترابٌ من ترابه ونَفَسٌ من أنفاسه .

لا أخاف وحدي ، ولا آمل وحدي ، ولا أصيح وحدي . قطاع كبير وقوى هائلة من الكون تخاف وتأمل وتصيح معي .

أنا جسر شيِّد بغير إتقان . أحدهم يعبرني فأتحطم وراءه . أحد المناضلين يخترقني ، يأكل جسدي وعقلي لكي أفتح له الطريق ، ولكي ينجو مني . انه هو الذي يصيح وليس أنا .

ب) السلُّم الثاني: السلالة

الصيحة لاتصدر عنك . لست أنت الذي يتكلَّم . أسلافٌ بأعداد لا تحصى هم الذين ينطقون عبر فمك . أنت لا تعبِّر عن رغبتك الشخصية وإنما تعبر من خلال قلبك عن رغبات أعداد لا تحصى .

ان موتاك لم يعودوا يقبعون في التراب ، وإنما صاروا طيوراً وأشجاراً وهواء . إنك تجلس بينهم وتستطعم بلحمهم ، وتستنشق أنفاسهم . لقد صاروا أفكاراً وأحاسيس وهاهم يحددون مشيئتك وسلوكك .

إن أجيال المستقبل لا تتحرك في الزمن اللاَّأيقيني بعيداً عنك . انهم يعيشون وينشطون وتتملكهم الرغبات داخل قلبك وكليتيك .

واجبك الأول وأنت توسّع أناك في هذه اللحظة المؤقتة التي تسير فيها على الأرض ، هو أن تفلح في أن تعيش المسيرة الخالدة ، أن تحيا المرني واللاَّمرني من ذاتك .

أنت لست فرداً . انك وحدة من جيش كامل . لحظة واحدة تحت الشمس تضيء وجهاً من وجوهك وما أن تضيأه حتى تتحول عنه لتضيء وجهاً آخر ، أكثر شبابا منه .

سلالتك هي الجسد الأكبر ، فهي الماضي والحاضر والمستقبل . أنت تعبيرٌ لحظويٌ ، أما عشيرتك فإنها الوجه . أنت الظل وعشيرتك اللحم .

أنت لست حراً . جموع من الأيدي تقبض على يديك وتتحرك . حين تغضب يرغي ويزبد أحد أسلافك عبر فمك . وحين تحب يتلعثم أحد سكان الكهوف ، وعندما تخلد إلى النوم تتفتح القبور ويمتلئ رأسك بأشباح الموتى .

رأسك ترعة من الدماء تتجمع على ضفافها قطعان وقطعان من ظلال موتى ، ويشربونك لكي يحيوا .

يصيح الموتى بداخلك : «لا تمت كي لا نموت» .

«لم نتمكن من الإبتهاج بالنساء اللاتي رغبناهن ، فلتتمكن انت وتضاجعهن . لم نتمكن من تحويل أفكارنا إلى أعمال . حولها أنت إلى أعمال . لم نستطع القبض على ملامح وجه آمالنا لنتحقق منها ، فلتتحقق أنت منها ، وتكمل عملنا!

أكمل عملنا! ندخل جسدك ليل نهار ، ونخرج منه صائحين . نحن لم نذهب ، لم نبارح جسدك ، ولم نهبط إلى الأرض . من داخل أحشائك نواصل الكفاح . خلصنا»!

لا يكفي أن تسمع في داخلك صخب الأجداد . لا يكفي أن تشعر بهم يتدافعون أمام عتبة عقلك .

انهم جميعا يتدافعون لكي يتشبثوا بحرارة عقلك ، ولكي يبلغوا مرة أخرى ضوء الأيام .

لكن عليك أن تحدد اياً من الأسلاف سيتحطم خلف جحيم دمائك وأيهم سيصعد مرّة أخرى ألى الضوء والتراب .

لا تحزن من أجلهم! اجلس ساهراً في الممر الأسفل لقلبك ثم أختر . قل : «هذا الظل متواضع ومظلم كأنه حيوان ، فليذهب! وهذا صامت ومتوهج ، انه أكثر حيوية مني ، فليشرب دمائي كلها» .

عليك ان تضيء دماء الاسلاف المظلمة . عليك أن تشكل من أصواتهم خطابا . نظِّف مشيئتهم ، وسّع جبهتهم الضيقة الصلبة . هذا هو واجبك الثاني .

ولأنك لست عبداً ، لذلك فَحالَ ولادتك وُلِد معك احتمال جديد ، واندفاعة حرّة تهز الظلمات العميقة لقلب عشيرتك .

وسواء أردت أم لم ترد ، فأنك تحضر معك إيقاعا جديداً ، ورغبة جديدة ، وفكرة جديدة ، وحزناً جديداً . إنك توسع جسدك الأبوي أردت أم لم ترد .

عليك واجبٌ كبير . فأنت لا تتحكم في وجودك الضئيل الصغير . أنت قطعة نرد حيثما يُلْعَبُ ، ولو للحظة قدّر شعبك .

كل فعل لك يتردد صداه في آلاف الأقدار . وحيثما تسير وتكتشف وتقيم مأواك فإن نهر الأجداد سيجري وينفذ إليك .

حين تخاف فإن خوفك سيفصم عُرَى أجداد لا يُحْصَون ، ويحط من قيمة أرواح لا تحصى من قبلك ومن بعدك . وحين تقوم بعمل شجاع فإن سلالتك بأكملها ستهب وتستبسل .

«أنا لست فرداً واحداً... أنا لست فرداً واحداً» . يجب أن تحرقك هذه الرؤيا في كل لحظة .

أنت لست جسداً ضعيفاً ويائساً . فخلف قناعك الترابي المتحرِّك يقبع وجه منذ آلاف السنين . إن عواطفك وأفكارك أكثر قدماً من قلبك ومن عقلك .

جسدك المرئي هو الرجال والنساء والصبيان الذين يعيشون خصوصية عشيرتك .

أسلافك وأحفادك الذين لم يولدوا بعد هم جسدك اللامرئي .

وحده الذي يتخلّص من جحيم ذاته ، هو الذي يشعر بالجوع حين يرى أحد أبناء جنسه يتضوّر جوعاً . ويقفز فرحاً حين يرى إمرأة ورجلاً من عشيرته يتبادلان القبل .

كل هؤلاء هم أعضاء جسدك المرئي العظيم . أنك تتألم وتفرح متبعثراً حتى نهاية الأرض في آلاف الأجساد التي لها صلة قرابة بك بالدم .

كافح من أجل جسدك الأكبر كما تكافح من أجل جسدك الأصغر . كافح من أجل أن تكون كل أجسادك قوية وبسيطة وكاملة . وأن يضاء عقلها وأن ينبض قلبها متوهجاً وباسلاً ومتوتراً .

كيف تستطيع أن تكون قوياً ، ومتوهجاً ، وشجاعاً ، إذا لم تتخلل هذه الفضائل جسدك الأكبر كلَّه ؟ كيف تستطيع أن تنجو إذا لم ينج دمك كله . إذا ضاع أحد أبناء عرقك فإنه يدفعك معه في ضياعه... أحد أعضاء جسدك يتلف .

عليك أن تعيش هذه الهوية بعمق ، ليس كفكرة مجرّدة وإنما كلحم ودم .

أنت صفقة واحدة في شجرة عِرْقك الكبرى . عنيك أن تشعر بالتراب وهو يتصاعد من الجذور العميقة ثم يتوزع في الفروع والصفق .

ما هو هدفك ؟ أن تكافح لكي تقبض على الفرع بقوة . وسواء أكنت صفقة أم زهرة أم ثمرة ، يجب أن تتحرك ، وتتجدّد ، وتتنفس الشجرة كنها من خلالك .

إن واجبك وأنت تقدّم خدمتك التطوّعيّة نبني جنسك هو أن تشعر في داخلك بكل الأسلاف . واجبك الثاني هو أن تضيء انطلاقتهم وأن تواصل عملهم . واجبك الثالث هو ان تنقل إلى إبنك الواجب الأكبر وهو أن يتجاوزك .

المعاناة تشتد داخلك ، شخص يكافح لكي يخرج ، ولكي ينفصل من جسدك ولكي ينجو منك .

بذرة في كبيتك . بذرة في عقلك . تريد ان تفارقك بلا عودة ، إذ لم تعد أحشاؤك تستوعبها ، إنها تكافح في سبيل الحرية .

« يا أبت... قلبك لايسعني ، أكاد أتحطم ، أُريد أن أخرج . يا أبت إني أكره جسدك ، وأشعر بالخجل لإنتصاقي بك . أُريد ان أخرج!

لقد تحولت إلى حصان كسول ، إن أرجلك عاجزة عن اللحاق بدقات قلبي . إنّي على عجل... سأترجّلُ ، سأصعد على جسدٍ آخر ، وسأتركك في الطريق ورائي » .

لكنك أيها الأب تفرح وأنت تسمع صوت إبنك وهو يعلو فتقول « كل شيء لإبني . كل شيء له . أنا القرد وهو الانسان . أنا الانسان وهو ابن الانسان .

قوة ما بداخلك ، قوة أعلى منك تمر ممزّقة جسدك ثم تناديك :

« قامر بالراهن واليقيني ، قامر به من أجل المستقبل والمجهول . لا تأخذ معك شيئا من اجل الآتي . إني أحب الخطر ، ربما تضيع ، وربما تنجو . لا تسل . ضع العالم كله وفي كل اللحظات بين يدي الخطر . أنا بذرة ذلك الذي لم يولد بعد ، آكل أحشاء سلالتك واصيح! » .

ج)السلّم الثالث : الانسانية

أنت لاتتكلم وحدك ، ولا تتكلم سلالتك وحدها من خلالك ، ففي داخلك تصطخب وتتصايح أجناس لاتحصى من البشر. بيض وصفر وسود .

تحرر من السلالة ايضا . جاهد لكي تحس بالانسان المكافح في كل مكان . أنظر كيف تميز عن الحيوان ، وكيف يكافح لينتصب واقفاً ، ولينظم الصيحات العشوائية . وليحمي الشعلة متّقدة ، وليحافظ على العقل بين عظام رأسه .

فلتملأك الرحمة على ذلك المخلوق الذي تنصّل عن القرد ذات صباح عارياً بلا حماية ، وبلا قرون وبلا اسنان ، لا يحمل سوى نار مشتعلة داخل رأسه الرخو .

انه لا يدرى من أين أتى ، وإلى أين سائر ، لكنه يريد عبر الحب والعمل والقتل ان يسود على الارض .

حدّق في البشر . إحزن من أجلهم . تأمل نفسك بين الناس ، واحزن من أجلها . نحن نتحسس بعضنا البعض في عتمة الحياة المظلمة . نبحث ، ونسأل ، ونرهف السمع ، ثم ننادي : «النجدة!» . نعدو ، ونعرف اننا نعدو نحو الموت ، لكننا لا نتوقف ، بل نواصل العدو .

نعدو ونحن نحمل معنا مصباحاً يضيء وجهنا ولحظتنا . ودون إبطاء نسلّم المصباح إلى إبننا وحالاً ينطفئ نورنا ونهبط الى العالم السفلي .

الأم تنظر إلى الأمام نحو بنتها ، والبنت تنظر الى الامام ايضا ، تنظر إلى أبعد من جسد زوجها ، إلى إبنها . أنظر كيف يسير اللامرئي على هذه الارض .

كلنا ننظر إلى أمام بلا رحمة ، مدفوعين من الخلف بقوى هائلة وغامضة لا تخضى .

قف على جسدك الترابي المؤقت وانظر وراءك صوب القرون الماضية . مذا ترى ؟

حيوانات كلها شَعر ودماء تصعد من الطين متمردة .

حيوانات كلها شَعر ودماء تهبط من قمم الجبال متمردة .

الجيشان يلتحمان متصايحين ، كإلتحام رجل بامرأة ، ثم يصيران كتلة من الدماء... عقل وطين .

حدّق... شعوب تصعد كما يصعد العشب من التراب ، ثم تسقط ثانية الى التراب سماداً خصباً لبذور المستقبل ، فتسمن الارض بالرماد والدماء وبعقول البشر .

أعداداً لا تحصى من البشر يضيعون في منتصف الطريق... يولدون ثم يموتون عاقرين . فجأة تنفتح هاويات في الظلام ، وتتحطم شعوب . وعبر زوبعة همجيّة تأتي أوامر بعدم الصمود فيجفل القطيع البشري ويتبعثر .

وفجأة نحس من تحتنا ومن حولنا وداخل هاوية قلبنا بالقوى العمياء العديمة القلب والعقل . التي لاتتشبع .

نبحر الى عرض البحر الصاخب ، فنحس بها في برق أصفر ، نودع ثروتنا وأبناءنا وآلهتنا كالبيضة داخل قشرتها .

القرون أمواج مظلمة وسميكة ، دماءٌ تعلو وتهبط ، وكل لحظة تأخذ شكل هاوية تنفتح .

حدّق في عرض البحر المظلم وأنت ساكن . حدّق في الهاوية كل لحظة وجهاً لوجه دون خيال أو خجل أو خوف . لكن هذا لا يكفي . عليك ان تتقدم خطوة أخرى :

كافح من أجل ان تعطي معنى لصراعات الانسان المتصلة . مرّن قلبك كي يسيطر قدر استطاعته على حيز اكبر من ساحة المعركة .

عُد القهقرى لتُحلِّق على قرن واحد من مسيرة الانسان ، ثم على قرنين ، ثم على ثلاثة ، ثم على عشرةِ قرون... ثم على أكثر ما تستطيع .

مرّن عينيك على مشاهدة شعوب بأكملها تتحرّك على حقب زمنيّة كبيرة .

استغرق في هذه الرؤيا بصبر وبحب ودون أدنى غرض حتى يتنفّس العالم بداخلك شيئاً فشيئاً ، وحتى يتوهّج المتصارعون ويلتحموا في قلبك ، حتى يتعارف الاخوة .

ان القلب يؤالف كل ما يقسمه العقل . انه يتجاوز ساحة الضرورة ويحوّل الصراع الى حب .

حافظ على توازنك وانت على الهاوية الجائعة ، وكافح لكي تؤسس الرؤيا . افتح بوابة الغموض التحتيّة المتعددة الألوان ، حيث النجوم والبحار والبشر والافكار . أعطِ شكلاً لما لا شكل له . للاعقلانيّة المطلقة .

اشحن قلبك بكل أنواع الرعب . أعد تركيب كل التفاصيل . إنّ دورة الخلاص واحدة وعليك أنْ تكملها!

ما معنى السعادة ؟

هو أن تعيش كل أنواع التعاسة .

ما معنى الضوء ؟

أن ترى بعين غير معتمة كل الظلمات .

نحن حرف بسيط ، مقطع واحد ، كلمة واحدة من الأُوديسا العظيمة .

نحن مستغرقون في أغنية عظيمة تلمع كما تلمع الأعشاب البحرية طوال فترة استكانتها في الأعماق .

ما هو واجبنا ؟

أن نرفع رؤوسنا عن النص لحظة ، بقدر ما تحتمل أحشاؤنا ، ونتنفس الأغنية البعيدة عابرة المحيطات .

علينا أن نلتحم في أتون المغامرات . علينا ان نعطي لرحلتنا معنى ، وأن نكافح دون انقطاع مع البشر ، ومع الآلهة ، ومع الحيوانات . وان نمسح بصبر

وتودة عى قوى إدراكنا . دهناً عظمياً من دهون عظامنا . من إيثاكي .

ومثل جزيرة تصعد من العدم ، سيصعد عمل الانسان ببطء وبكدٍ شديدين .

وفي هذه الحراثة الدائمة ستعمل الأجيال وستحب وستأمل وستغني .

أجيال جديدة من البشر يطأوون جثث الأجداد ويواصلون العمل فوق الهاوية ، من أجل ان يروّضوا السر الرهيب... كيف ؟ سيقومون بذلك وهم يزرعون حقلا ، أو يقبلون إمرأة ، أو يتفحصون حجراً أو حيوانا أو فكرةً .

تأتي زلازل فتهتز الجزيرة . يتحطم أحد أطرافها بينما يصعد طرف آخر تحت تأثير أمواج الأعماق .

إن العقل هو أحد العمال البحريين وعليه ان يردم الهاوية .

من كل هذه الأجيال ، ومن كل هذه التعاسات والأفراح وحالات العشق والحروب والأفكار ينبعث صوت هادئٌ وصافٍ . إنه هادئٌ وصافٍ لأنه يحتوى على كل خطايا ومخاوف الانسان المكافح الذي يتجاوزها ويصعد .

من بين كل هذه المادة الانسانية يصعد كائنٌ ما بالأيدي وبالأقدام مختنقا بالدموع والدماء وهو يجاهد لكي ينجو . مم يريد النجاة ؟ يريد ان ينجو من الجسد الذي يحيطه ، ومن الشعب الذي يتشبث به . ومن لحم الانسان وعقله وقلبه .

- ايها السيد . .من أنت ؟ انك تنتصب أمامي وكأنك من قبيلة الانسان .

- الحصان البحري الاسطوري بيدين تمتدان الى السماء وقدمين مثبتتين في الطين .

- أنا ذلك الذي يتقدّم أبداً .

- لماذا تتقدّم ؟ إنك تتعب وتكافح . تناضل لكي تتنصل عن الانسان... تتنصل عن الانسان والحيوان . أُناشدك ألاّ تتركني .

- أناضل وأصعد لكي لا أغرق . أبسط يديّ وأتشبّثُ بكل الأجساد الحارة . أنتصب فوق عقلي ورأسي لكي أتنفس . في كل مكان أغرق ولامكان يسعني .

- يده سيد . حدة ترتجف ؟

- تشعر بخوف . فطريق تصعد لانهاية له . رأسي شعلة تحاول ابداً ان تنفصل عن جسد . لكن روح نبيل تهب دائما وتطفئني .

ان كفاحي كله يتعرض للخطر بين لحظة وأخرى . ان كفاحي كله يتعرض لخطر في كفة الجسد . اخطو وأسير داخل اللحم كالسائر في الليل وانادي : « النجدة ».

د) السلم الرابع: الأرض

أنت لاتصيح ، وسلالتك لاتنادي عبر صدرك الفاني... وأجناس البشر من بيض وصفر وسود لايصيحون وحدهم في جوانح قلبك . ان الارض كلّها ، بمياهها وأشجارها ، بحيواناتها وبشرها ، وبآلهتها تصيح في صدرك .

ان الارض تنهض على عقلك فتشاهد للمرة الأولى ، جسدها كاملا . .تقشعرُ .

إنها حيوان يأكل ويتوالد ويتحرّك ويتذكّر . تجوع الارض فتأكل بنيها : نباتات وحيوانات وبشراً وأفكاراً . . تطحنهم داخل فكيها المظلمين ، وتمرِّرهم عبر جسدها ثم تدلقهم على التراب .

تتذكر وتستعيد ما أصابها من قبل ، وداخل قلبي تتفتح ذاكرتها وتسود على الوقت .

ليس القلب هو الذي يقفز وينبض داخل الدم ، وانما الأرض بأكملها تقفز وتنبض ، وهي تلتفت وراءها لترى مرّة أخرى صعودها الرهيب على الهاوية .

أتذكر صحراء كاملة من مادة فسفوريّة مشتعلة . أعبر وقتا فوضوياً لا يحصى وحيداً يائساً وصائحاً في البريّة .

شيئاً فشيئاً تتضاءل الشعلة ، يترطب رحم المادة ويحيا الحجر ، تتفتّح وتصعد مرتجفة في الهواء ورقة صغيرة خضراء . تتشبث بالتراب وتتماسك . ترفع رأسها ويديها وتقبض بشدّة على الهواء والماء والضوء وتحلب الكون .

تحلب الكون وتحاول ان تمرّره عبر جسدها الرقيق كالخيط لتجعله زهرة فثمرة فبذرة ، ولتجعله خالداً .

يقشعر البحر وينشق الى قسمين . تصعد من قراره المكين دودة قلقة عمياء .
لقد انهزمت الوطأة ، ودُفع الغطاء الحجريُ للموت .
الاشجار والحيوانات تتصدّر القيادة ، ممتلئة بالجنس والجوع .
أحدّق في الارض بعقلها الطيني واقشعرّ وانا أواجه الخطر مرّة أُخرى .
كان يمكن ان اغرق ، وان اضيع في الجذور التي تشرب الطمي بسعادة .
كان يمكن ان أتحطم داخل جلد الحيوان الضخم هذا . أو أترنح الى الأبد داخل دماغ الاسلاف القدامى المظلم والدامي .
لكنيّ نجوتُ . عبرت النباتات ذات اللّحاء السميك . عبرتُ الاسماك والطيور والوحوش . وصرت انساناً .
لقد صرتُ إنساناً والآن أكافح لكي أتركه خلفي!
«لا شيء يسعني . لا شيء يسعني . أُريد ان أنعتق» .
هذه الصرخة ظلّت لدهور طويلة تسحق وتثمر داخل أحشاء العالم . تقفز من جسدٍ لجسد ، ومن جيلٍ لجيل ، ومن نوعٍ لنوع . وفي كل مرّة تصير أكثر قدرة على إلتهام اللحوم ، وأكثر قوة . كل الآباء يصيحون «أُريد ان انجب إبناً يتفوقني»!

في اللحظات الرهيبة التي تمر بها هذه الصرخة عبر أجسادنا نحس بقوة تعود الى ماقبل ظهور الانسان ، لاتعرف الرحمة ، تدفعنا .نحس من خلفنا بفيضان طينيٍ مليء بالدماء والدموع والعرق ، وبأصوات الفرح والنشوة والموت .

ريح عشقيّة تهب على الارض . الدوّار يصيب الأحياء جميعاً فتتلاحم في البحار والكهوف والهواء وتحت التراب ، وتتناقل من جسد إلى آخر نبأً عظيماً ومبهماً .

والآن فقط ، نحن نستشعر الخطر من خلفنا ، نبدأ بغير وضوح التكهن بمعنى الكفاح ، لماذا كانت الحيوانات تولد ثم تموت ، ومن قبلها النباتات ، ومن قبل كل هذا وذاك قوى الاحتياطي اللاعضويّة .

موساتنا وعرفاننا بالجميل وتقديرنا لرفاقنا القدامى في معركتهم . لقد عصوا وحبوا وماتوا لكي يفتحوا لنا الطريق لنعبرعليه .

نحن مثلهم ، داخل الشهوة نفسها ، في اللهفة وفي البلبلة . نعمل لشخص آخر سيتقدم خطوة الى الامام مع كل فعل شجاع نقوم به .

ان كفاحنا سيكون له هو الآخر أيضا ، هدفٌ أعلى ، إذ سيأتي من بعدنا من سيستخدم جهودنا وتعاستنا وجرائمنا ويقدّسها .

إن كفاحنا قفزة ، نَفَسٌ يتطاير ويصطخب ، يحوّل المادة الى ثمر ، يمرُّ بالحيوانات خالقا الانسان ، ومتشبثا بما فوقه كصقر خاطف مزمجر .

لقد أتى دورنا! إنه يعمل فينا عمله . يُصنِّعُ بداخلنا المادة فيحوّلها الى روح . يطأُ عقولنا ، يقفز واثقاً على البذرة ويصارع ، مخلِّفا جسدنا وراءه لكي ينعتق .

كأن هذه الحياة مشهد مصيدة خالدة ، لزوجٍ غير مرئي يطارد الخلود من جسدٍ الى جسد ، يطارد الزوجة التي لايمكن ترويضها . ونحن ، كل المدعوّين لحضور حفل مراسم الزواج ، نباتات وحيوانات وبشر ، نقفز مرتجفين امام بيت الزوجيّة ، وكل فرد منا يحمل برهبة رموز الزواج المقدّسة . البعض يحمل الذكر ، والبعض الآخر يحمل الرحم .

الرؤيا:

بدأت حين سمعت الصيحة . عبرت من معركة الى أُخرى بكل أنواع التدريبات العسكريّة للإنسان المحارب .

حاربت داخل الخيمة الصغيرة لجسدك ، لكنها بدت لك ساحة ضيّقة ، فاختنقت ثم انسكبت لكي تنعتق منها .

عسكرت عند سلالتك . إمتلأت أياد وقلوباً .

صعدت مع دمك الى الاسلاف ذوي الرهبة ، وتحرّكت مع الموتى والاحياء ، ومع الذين لم يولدوا بعد ، لكي تحارب .

وفي إحدى المرّات تحرّكت كل الاجناس معك . إنتظم الجيش الإنساني خلفك ، واصطخبت كل الارض وكأنها معسكر .

وهكذا صعدت ، وعلى القمة الشاهقة تفرّع كل مخطط المعركة الى تلافيف عقلك ، وامتزجت كل النزاعات العسكريّة داخل معسكر قلبك الغامض .

وفي الخلف انتظمت الحيوانات والنباتات مثل خيوط الامدادات لجيوش الانسان الاماميّة المتصارعة .

والآن ها هي الارض كلها تتشبث بك وتصير جسداً لك ، وتصيح وسط الهاوية .

كيف أُحاصر هذه الرؤيا الرهيبة بالكلمات ؟

أنحني على الهاوية وأرهف السمع ، يتقدّم أحدهم وهو يلهث ، على الطريق الصاعد الخطير والغامض ، يبذل جهده ، يكافح باصرار ليصعد ، لكنّه يصطدم بالعوائق في طريق تقدّمه . أحدهم يهبط مسرعاً على طريق سرّي ، منحدر ومعبّد .

يختنق النفس بالتيار الغليظ الهابط إلى اسفل ، ويسير سيراً حلزونياً .
وفي لحظة تمتد لأكثر ما تتحمله أيّ حياة ، تتوازن الرغبتان المتعاكستان .
هكذا تُولد الأجساد ، هكذا يُخلق العالم ، وتتوازن القوتان المتصارعتان داخل الاحياء .

وذات لحظة يلتفُّ بالواحد الذي يصعد ، جسدُ محبوبٌ ، جسده هو ، فيعيقه في حركة صعوده ، لكنه ينعتق سريعاً ، ينعتق بالعشق ، وبالموت ، ثم يواصل المسيرة .

يطأ النباتات ويعطيها شكلاً ويعبؤها ، يعسكر بكامل عتاده ، ماذا يعني « بكامل عتاده ؟ » يعني انه مزودُ بالاشواق ، وبالقوة اللتين تمكّنانه من الانعتاق .

يحاول الوقوف على قدميه . يتنفّس بجهد لكنه يشعر بالإختناق . يترك على النبات ما يستطيع تركه من الثِقَل والتوجُس والسكون ، يتخفَّف ويقفز بكامل هيئته ، مرة أُخرى ، أبعد وأعلى مما كان ، خالقاً الحيوانات . ثم يعسكر بكامل هيئته في كليتيها . « بكامل هيئته » هنا تعني مرّة أخرى : مزوّدُ بالاشواق والقوة اللتين تمكّنانه من الانعتاق .

ان الاجساد تتنفس ، تستطعم قواها وتستجمعها ، وفي كل لحظة عشق تتحطم ، تستهلك كل شيء وتستفرغ لكي تترك روحها لإبنها . أيّ روح ؟ روح الاندفاع الى أعلى! تتطهّر بين أجساد الحيوانات ببطء وشدة ، ثم تترك عليها قدر ما تستطيع من المعاناة والضعف والظلام .

تنهض مرّة اخرى وهي أخف مما كانت عليه ، ثم تقفز محاولة الانعتاق . ان هذه الإندفاعة نحو الحريّة تخلق ببطء وعبر الجهاد مع المادة - رأس الانسان .

والآن نحس به ، ونحن مرتعبين ، يجاهد مرّة أخرى لكي يتعدّانا ويقذفنا خلفه مع النباتات والحيوانات ، ليقفز بعيداً . لقد أتت اللحظة وسط مشاعر الفرح والحرقة الهائلين . لننضمّ نحن ايضاً ، نحن الطلائع ، الى قوى الاحتياطي والإمدادات .

خلف تيار جسدي وعقلي ، وخلف تيار سلالتي والبشر أجمعين ، وخلف تيار الحيوانات والنباتات ، أرى وانا أرتجف ذلك اللامرئي يطأ كل المرئيات ويصعد . وتحت وطأة قدمه الثقيلة أسمع كل الاحياء وهي تتحطّم .

وجهه عابس ، وجهه صامت ومظلم ، بعيد عن الفرح والحزن ، بعيد عن الأمل . أرتجف . هل انت إلهي ، جسدك مليء بالذاكرة ، كمن قضى سنوات عديدة في السجن . إنك تزيّن يديك وصدرك بأشجار غريبة ، وبوحوش يكسوها الشعر ، وبمغامرات دامية وصرخات . ايُّها السيد ، ايُّها السيد . انك ترسل أصواتاً كالحيوان . قدماك مضرجتان بالدماء والطين ، وفكّاك الثقيلتان تهرسان كحجر الطاحون .

تمسك بالأشجار وبالحيوانات ، تطأ الانسان وتصيح ، تصعد المنحدر اللانهائي المظلم للموت وانت ترتجف . الى اين تذهب ؟ يتزايد الالم ويتزايد النور والظلام . تبكي ، تمسك بما هو فوقي ، تستطعم دمي ، تتشجّع وتركل قلبي ، أحملك في صدري . أخاف منك وأعطف عليك .

كأنّنا وارينا شخصاً ما التراب بعد ان تيقّنا من موته ، لكنا الآن نسمعه وهو ينادي : النجدة! ثم يرفع حجارة القبر بمعاناة تفوق طاقة أجسادنا وأرواحنا ، منتصباً نحو آفاق أكثر علواً ، مُتنفساً بحريّة .

ان حجارة القبر الثقيلة التي يرفعها تشمل كل قول ، وكل فعل ، وكل فكرة . ان جسدي وكل العالم الذي أتأمله بسمائه وأرضه هي الاخرى حجارة القبر ، والإله يجاهد كي يرفعها .

تصيح الاشجار والحيوانات والنجوم : «اننا نضيع» . يدان كبيرتان ترفعهما كل المخلوقات نحو السماء طلبا للنجدة .

يبدو الإله بركبتين معقودتين تحت ذقنه ، ويدين مبسوطتين نحو الضوء ، وقدمين ملتصقتين بظهره ، وكأنه لفّة خيط تتسلل الى كل أعضاء الجسد .

حين أفتح ثمرةً أعرف ان البذرة تتعرّى في داخلي مثلها ، وحين أتحدث مع البشر أميّز شيئاً كهذا يحدث داخل عتمة عقولهم الداكنة .

يجـهد الإله بكلّ شيء . بأيدٍ مشـدودة نحـو الضوء... أيّ ضوء ؟ خـارج وفوق كل شيء .

ليس الألم وحده هو جوهر إلهنا ، ولا الأمل في حياة مستقبليّة ، أو في حيـاتنا الارضيّة هذه ، ولا الفرح أو الأنتصار . ان أي ديانة ترفع من قدْر وجه واحد من هذه الوجوه الأساسيّة للإله عن طريق العبادة تضيّق من سعة قلبنا وعقلنا .

إن جوهر إلهنا هو الكفاح ،الذي ينبسط ويعمل فيه بلا انقطاع الألم والفرح والأمل .

ان عمليّة الصعود ، والمعركة ضد التيار المعاكس يولّدان الألم ، لكن الألم ليس سلطاناً مطلقاً ، فكل انتصار ، وكل توازن مؤقت على طريق الصعود ، يملؤ بالفرح كل المخلوقات التي تتنفس ، وتستطعم ، وتعشق ، وتنجب .

لكن الأمل يتبعث على الدوام من أعماق الفرح والألم ، فننعتق من الألم ونوسّع رقعة الفرح ، ويبدأ الصعود الأليم من جديد ، ويولد الفرح من جديد ، ويقفز مرّة اخرى أمل جديد .

فالدورة لاتنغلق ابداً ، إذ هي ليست مجرد دورة ، وإنما دائرة حلزونيّة متصاعدة أبداً ، توسّع وتبسط وتطوي كفاحها الثلاثي الابعاد ، الذي يحتوي الالم والفرح والأمل .

ماهو هدف هذا الكفاح ؟ يتساءل العقل البشري المسكين والمصلحي المرّة تلو الأُخرى ، ناسيا ان النّفس العظيم لايعمل ضمن زمان ومكان انسانيين ، كما لا يعمل ضمن سببيّة إنسانية .

ان النفس العظيم أكبر من الاسئلة البشريّة ، وله اندفاعات كونيّة هائلة يتصورها عقلنا الضئيل تناقضات ، لكنها تتآخى داخل جوهر الأُلوهيّة . وتحارب مجتمعة كرفاق سلاح أوفياء .

يتوزّع النّفس الأساسي في كل الاتجاهات ، يندفع ويحارب ، يفشل وينجح ، وهو يمارس نشاطه . انه عجلة الريح .

ما هي تلك الإندفاعة من كل إندفاعات الإله ، التي يستطيع الانسان ان يدركها ؟

انّها الاندفاعة التالية وحدها : ان نميّز خطاً أحمر على الارض . أن نميّز خطاً أحمر ودموياً يتصاعد من المادة الى النباتات ، ومن النباتات الى الحيوانات ، ومن الحيوانات الى البشر .

ان الإيقاع الممتد دون انقطاع ، من قبل ظهور الانسان على سطح هذه الارض ، هو المسيرة الوحيدة للامرئي . أما النباتات والحيوانات والبشر ، فهي عتبات السلّم التي يخلقها الإله ليطأها خلال صعوده .

الطريق الصاعد شاق ورهيب ولانهائي ، وفي هذه الهجمة سينتصر الإله ، هل سينتصر ؟ هل يوجد نصر ؟ هل توجد هزيمة ؟ إن التلف سيصيب جسدنا ، وسيعود الى التراب ، لكن ما الذي سيؤول اليه ذلك الذي يتعداه!

كل هذه المخاوف تتراجع ، لأن كافة الآمال وحالات اليأس تختفي في دوامة الإله النولبية الشرهة .

ان الإله يضحك ، ويرثي ، ويقتل ، ويشعل فينا النار ، ثم يتركنا في منتصف الطريق نحو الإحتراق .

وهكذا يتملكني الفرح وأنا أشعر ببداية العالم ونهايته تخترقان صدغيَّ بلمح البصر .

في لحظة كلمح البرق أتأمل بذر وإنبات وإزهار وإثمار وإندثار كل شجرة وحيوان وانسان ونجم وإله .

ان الارض بأكملها بذرة زرعت في تجاويف عقلي ، وكل السنوات التي لا تحصى والتي قضتها تكافح داخل رحم المادة المظلم لكي تتفتح وتثمر ، تعبرها في رأسي متفجرة كوهج برقيّ عابر .

آه! لو نلحظ هذا البرق ونمسك به للحظة ثم ننظمه في قول انساني .

فلنعضّد تلك اللحظة التي يكمن فيها كل شيء . يكمن فيها ما مضى وما سيأتي ، قبل ان تضيع الدوامة العشقية للغة وتغدو تعبيراً سكونياً .

كل كلمة تشبه قارب نجاة ، نرقص حولها مسكونين بالقشعريرة ونحن ندرك أن الإله هو ذلك المقيم الرهيب بداخلها .

مهما تعيش النشوة فانك لن تستطيع ان تحوّلها الى قول ، ولكن رغم ذلك عليك ان تناضل لكي تحوّلها الى قول . حارب بالاساطير وبالأمثال وبالإستعارات . حارب بالكلمات الشائعة ، وبالكلمات النادرة ، بالصيحات وبالقوافي ، لكي تمنح النشوة لحماً ودماً وتجسّدها .

ان الإله يفعل ذلك . هو النشواني الأعظم ، الذي يتكلّم ، يكافح كي يتكلّم ببحار ونيران ، بأجنحة وألوان ، بأظافر وقرون . كي يستطيع القبض على نشوته .

وأنا أيضا ، كغيرى من المخلوقات الحيّة ، أجد نفسي في مركز الدوّامة الكونيّة . أنا عين الانهار الشاسعة وكل ما حولي يرقص ، ثم تضيق الدورة فجأة فتتدفق السموات والارض باندفاع شديد في أعماق قلبي الحمراء .

يتبنّاني الإله برهبة ومحبّة ،فليس له أمل غيري ، ثم يقول : «ذلك النشوانيُ الذي يلد كل شيء ، ويفرح بكل شيء ، ويمحو كل شيء . هو إبني» .

الممارسة:

أ: العلاقة بين الإنسان والإله.

الدرع والشكل الاكثر قوة للنظرية ، هو الممارسة .

الممارسة ليست ان ترى فحسب كيف تقفز الشرارة من جيل الى آخر ، وانما ان تقفز وتحترق معها .

الممارسة هي البوابة الكبرى للخلاص ، وهي الوسيلة الوحيدة التي تستطيع الاجابة على اسئلة القلب .

فداخل ابعاد العقل المعقَّدة الكثيرة الإلتواء تجد الممارسة أقصر الطرق . انها لاتجد وانما تنشئ أقصر الطرق ، وهي تقاطع يمنة ويسرة مقاومة المنطق والمادة .

لماذا ناضلت خلف الظواهر لاصطياد اللامرئي ؟ لماذا كل هذه المسيرة الحربية والعشقيّة عبر جسدك ، وعبر السلالة ، وعبر الإنسان والحيوان والنبات ؟ لماذا يجري الزواج السري خلف هذه النضالات الشاقة ، والإحتضان الكامل والوصل الباخوسي* وسط النور وتحت أجنحة الظلام ؟

لقد كافحت لتصل الى حيث بدأت ، الى النقطة الحالية الغامضة ، والنابضة لوجودك الراهن بعيون جديدة ، وبمذاق وشم ولمس جديد ، بعقل جديد .

ان واجبنا الإنساني العميق لا يتلخص في ان نوضّح أو نضيء ايقاع الإله . وانما في الخضوع له قدر ما نستطيع ، ايقاع حياتنا الصغيرة ، وعمرنا القصير .

---

* باخوس هو إله الخمر والنشوة في الديانة اليونانية القديمة .

هكذا فقط ننجح نحن غير الخالدين في ان ننجز أمراً خالداً . ذلك بأننا نتعاون مع من هو خالد .

وهكذا ننتصر على التفاصيل وعلى الخطيئة المهلكة ، كما ننتصر على محدودية عقولنا ، ونحوّل عبودية المادة الترابية التي مُنحت لنا لاستخدامها في حينئذ الى حرية .

في كل هذا وبعيداً عنه ، يندفع كل البشر ، وكافة الشعوب ، وكل النباتات والحيوانات ، والآلهة والشياطين كجيش جرّار نحو الأعالي ، منجذبين بنَفَس يستعصي على الإدراك ، ويصعب الفكاك منه .

نناضل من اجل أن نجعل هذا النَفَس مرئيا ، ولكي نمنحه وجهاً ، ولنعبأه في كلمات واستعارات ، وأفكار وتعويذات ، لكي لا يضيع منّا .

لكن الاحرف الاربعة والعشرين* التي نكتب بها لا تسَعه . وما كل هذه الكلمات والإستعارات والافكار والتعاويذ ، سوى قناع جديد يخفي الهاوية .

ولكن بهذا وحده ، أي بتحديد اللا محدود ، نستطيع داخل الدورة الإنسانية الحديثة التكوين ان نعمل . ماذا يعني ان نعمل ؟ أن نملأ هذه الدورة برغبات ومخاوف ومناشط ، وان نتوسع حتى نبلغ الحدود . وألاّ تعود الحدود تسعنا ، وان تتشقق وتتحطّم . وهكذا نفعل فعلنا فنزيد الجوهر ونوسّعه .

لذلك فان عودتنا الى الظواهر ثانية بعد اتصالنا بالجوهر ، سيكون لها قيمة هائلة .

لقد شاهدنا الدورة العليا لقوى الدوّامة اللولبيّة ، وهي الدوّامة التي اطلقنا عليها اسم الإله . كان يمكننا ان نعطيها ايّ إسم آخر من بين اسماء عدة مثل : الهاوية ، السّر ، الظلام المطلق ، النور المطلق ، المادة ، الروح ، الأمل الأخير ، اليأس الأخير ، الصمت .

لكننا أسميناها الإله ، لأن هذا الإسم وحده ظل يصطخب في اعماق

---

* أحرف اللغة اليونانية

أحشائنا منذ دهور سحيقة . ان تلك الزلزلة تعتبر ضرورية لكي نتحسس الجوهر الرهيب بأجسادنا بعيداً عن المنطق .

علينا أن ندرك ونميّز بجلاء في خضم الدورة اللولبيّة للألوهيّة القوس الناري الصغير لعصرنا .وعلى هذا القوس المشتعل اللامرئي نستطيع ان ندرك بعمق وسريّة اندفاعة الدورة كلّها . وان نتقدّم بانسجام مع الكون ، فيتصاعد حماسنا ونحارب .

وهكذا فإن نشاطاتنا الراهنة إذ تلتحق بإندفاعة الكون بوعي ، تنجو من خطر الموت معنا .

انها لاتتبدّد في تحديقة باطنيّة راكدة للدورة الخالدة . ولاتحتقر الضرورات اليومية المقدّسة .

انها تنحني في جدولها الدموي الضيّق وتعمل باصرار على موضع صغير ، زماني ومكاني . وهو موضع زماني ومكاني ، لانه يلتحق بالاندفاعة الإلهيّة للدورة الخالدة .

لايهمني ماقدّمته عصور أخرى . وشعوب أُخرى من الوجوه الى الجوهر المترامي الاطراف الذي لاوجه له . لقد ملأته بفضائل انسانيّة ، وعطايا وعقوبات ويقينيّات . لقد أعطت للمخاوف وجهاً ، وأخضعت الفوضى لايقاع ما ، ووجدت تبريراً أسمى للعيش والعمل . لقد أدت واجبها .

أما نحن فقد تجاوزنا الآن هذه الإحتياجات ، ومزّقنا قناع الهاوية هذا . ان إلهنا لم يعد يسعه ذلك القناع القديم .

لقد إمتلأ قلبنا بمعاناة جديدة ، وبإشعاع وصمت جديدين . لقد توحّش السر واتسع الإله .

ان القوى المظلمة ، هي الأُخرى تتصاعد وتوسع رقعتها ، وكل الجزيرة الإنسانية تتحرك .

فلننحن على قلوبنا ونحدّق دون وجل في الهاوية ، ولنحاول ان نشكّل مرّة أخرى من لحمنا ودمنا الوجه الجديد والعصري لإلهنا .

ن .نهنا ليس فكرة تجريديّة أو ضرورة منطقيّة أو بناءً منسجماً هذلا من ذافكار ولتصورات .

نه ليس محايداً لا تشوبه شائبة . وليس ذكراً ولا أنثى ، وليس خلاصة تركيب لا رائحة له من صنع عقولنا .

انه رجل وإمرأة ، زائل وخالد . روح وروث . يلد ويلقّح ويقتل . انه عشق والموت معاً ، يولد مرّة أخرى ويقتل ، يرقص على الارض الفسيحة خارج حدود المنطق الذي لايتسع للمتناقضات .

إلهي ليس كليّ القوة ، انه يكافح ويواجه الخطر في كل لحظة ، يرتجف ويترنّح عبر المخلوقات كلّها ويصرخ ، يتعرّض للهزيمة بلا انقطاع ، ثم ينهض ممتلئاً بالدم والتراب ليبدأ كفاحه من جديد .

انه مثخن بالجراح . عيناه مليئتان بالخوف والإصرار . صدغاه محطمتان ، وفكاه مهشمتان ، لكنه يأبى الاستسلام ، بل يتسلق بالأرجل والأيدي ،عاضاً على شفتيه ، وهو يتقدم الى أمام دون تراجع .

إلهي ليس كليّ الطيبة ، انه مليء بالقسوة والعدالة المتوحّشة ، انه يميّز الأفضل دون رحمة . لا تسيطر عليه مشاعر الشفقة ولا يكترث بالناس والحيوانات ، ولا بالفضائل والافكار ، اذ انه يحبها جميعا لبرهة ثم يحطمها ويتقدم .

انه قوّة تتسع لكل شيء . قوّة تلد كل شيء . تلد الأشياء جميعا وتحبّها ، ثم تمحوها . ولو قلنا : ان الإله ريح عشقيّة تحطّم الاجساد لكي تعبر ، ونستعيد في ذاكرتنا كيف انه يمحو الافراد دون شفقة ، وأن العشق يفعل فعله وسط الدماء والدموع ، حينها نستطيع ان نلمح عن قرب وجهه الرهيب .

إلهي ليس حكيماً مطلق الحكمة ، اذ أن عقله بكرة خيط من النور والظلام ، وهو يناضل لكي يبسطها في تيه الجسد .

يترنح ، يبحث ، يتحسس ذات اليمين ، يتراجع الى الوراء ، يستدير يساراً ، يستنشق الهواء ، يتوتر قلقاً على شفير الهاوية ، يذهب بعيداً ، منقّباً

وباحثاً عبر ملايين القرون . وأخيراً يشعر بأن العتمات الطينيّة حول عقله قد غمرها الضوء .

أمام رأسه الثقيل الكالح السواد ، وبكفاح يجل عن الوصف يبدأ في خلق العيون ليرى والآذان ليسمع .

إلهي يناضل بلا أدنى يقين . هل سينتصر ؟ هل سيهزم ؟ لا شيء يقينياً في الكون . انه يراهن على اللايقين ، وفي كل لحظة يلعب بقدره كاملاً .

يتشبث بالأجساد الدافئة . إذ ليس له من ستر سواها . ينادي مستغيثاً ، فيعلن حالة من الطوارئ في أرجاء الكون .

من واجبنا حين نسمع النداء ان نهرع للسير تحت ألويته ، وان نحارب معه ، وأن ننجو أو نضيع معه .

ان الإله في خطر ، فهو ليس القوي المطلق لكي نعقد أيدينا ، ونتفرج ، آمنين في النصر الأكيد . إنه ليس الطيب المطلق ، لكي يملأنا الأمل والثقة بأنه سيرثي حالنا وسينقذنا .

ان الإله يتعرض الى الخطر على كل مساحة جسدنا الحاضرة . إنه لن يجد الى النجاة سبيلاً ما لم نحاول انقاذه بكفاحنا ، كما لا يمكننا انقاذ أنفسنا اذا لم تتحقق نجاته .

نحن وإياه كلٌّ واحد من الدودة العمياء في أعماق المحيط ، الى ساحة المجرّة اللانهائيّة . واحدٌ هو الذي يكافح ويتعرّض للخطر . انه ذاتنا . وفي صدرنا الترابي الصغير ثمة واحد فقط يناضل ويتعرض للخطر.. انه الكون .

يجب ان نحس بأننا لا نتقدّم من وحدة إلهيّة الى الوحدة الإلهيّة نفسها . فنحن لا نسير من فوضى الى فوضى أُخرى . ولا من ضوء إلى ضوء آخر ، ولا من ظلام الى ظلام آخر ، لأنه اذا كان هذا سبيلنا ، فما قيمة حياتنا هذه ، بل وما قيمة الحياة كلّها ؟

لكننا نسير من فوضى كليّة القدرة ، ومن هاوية سرمديّة غليظة من الضوء والظلام . ونكافح جميعاً : نباتات وحيوانات وبشراً وأفكاراً في ممر البرهة

صغيرة العابرة لحياتنا الفرديّة ، لكي نضبط بداخلنا ايقاع الفوضى وشي ء وية . ونصنع داخل أجسادنا اكبر قدر من الظلام فنحيله ضوءاً .

إنّ لا نناضل من أجل أنفسنا ، ولا من اجل عرقنا ، ولا من اجل الانسانية . إنّا لا نناضل من أجل الأرض ، ولا من أجل الأفكار ، لأن كل ذلك لا يعدو كونه درجات مؤقتة وعزيزة من سلّم الإله الذي يصعد ، وهي درجات تتحطم حال ان يطأها الإله أثناء صعوده .

في حياتنا التي تمرُّ قصيرة كلمح البرق نحس بالإله كلّه يطأنا ، ثم ندرك فجأة لو تتملكنا رغبة هائلة وننظّم كل قوى الارض المرئيّة واللامرئيّة لندفعها الى أعلى . لو أننا نناضل مجتمعين ونظل دائماً جنوداً ساهرين فلربما تمكنّا من إنقاذ الكون .

ليس الإله هو الذي سينقذنا ، وإنما نحن الذين سننقذه . . محاربين ومبدعين ومحوّلين المادة الى روح .

لكن نضالنا كلّه قد يذهب هدراً إذا ما تقاعسنا ، ولو أدركنا الخوف ، أو تملّكنا الذعر ، فان الكون كلّه سيصبح في خطر .

ما الحياة الاّ تطوّعٌ عسكريٌّ للإله . نتحرك فيها حاملين صليبنا ، شئنا ذلك أم أبينا ، لا لنحرر القبر المقدّس ، وانما لنحرّر الإله المدفون داخل المادة وداخل ارواحنا .

ان القبر المقدّس هو كل جسد وكل روح ، والقبر المقدّس هو بذرة القمح فلنحرّرها . القبر المقدّس هو العقل الذي يحترق فيه الإله وهو يصارع الموت ، فلنهرع لنجدته .

ان الإله يعطي إشارة المعركة ، فأندفع أنا الى الهجوم مرتجفاً .

وسيان اذا ما انسحبت معتزلاً المعركة ، أو حاربت ببسالة فانني سأبقى دائماً في أتونها .

إذا انسحبت معتزلا سيصير موتي عاقراً . وسيضيع مع جسدي وستتبعثر روحي أدراج الرياح . وإذا حاربت ببسالة فسأهبط الى أعماق الارض كثمرة

مليئة بالبذور . نَفَسي سيهجر جسدي وسيتركه يفسد ، ثم سينظِّم أجسادا جديدة ويستمر في المعركة .

ان صلاتي ليست ندبة شحاذ ، ولا اعترافات عاشق ، ولا حسابات متواضعة لتاجر مقايضة صغير : وهبتك فاعطني .

ان صلاتي هي تقرير من جندي الى قائده : هذا مافعلته اليوم... هكذا حاربت لكي أنقذ قطاعي الخاص طوال المعركة ، هذه هي المعوّقات التي واجهتها... وهكذا أُفكر استعدادا لمعركة الغد .

أنا وإلهي فارسان نسير تحت وهج الشمس الحارقة ، أو تحت رذاذ المطر ، نتجاذب أطراف الحديث شاحبين ، جوعى ، وعنيدين .

أُناديه «ياقائدي» فيدير رأسه نحوي . وحين ألحظ معاناته تنتابني القشعريرة .

قاسية هي محبتنا ونحن نجلس على المائدة نفسها ، ونعاقر النبيذ نفسه في حانة الارض المنخفضة هذه .

وحتى يحين موعد تبادل الانخاب ، تقعقع سيوف ، وتنفجر حالات من الكراهيّة ومن العشق . نسكر برؤى مذابح تصعد الى مآقينا ، وتتهدّم مدنٌ داخل عقولنا ، ونحن مثخنون بالجراح ، ننتحب ألماً ، وننهب بلاطاً عظيماً .

ب) علاقة الانسان بالانسان:

من أعماق الظلمة يتصاعد خط مشتعل مشيراً في اتجاه اللامرئي .

ماهو واجبنا ؟ أن نصعد الخط الدامي معه .

فكل ما يندفع متصاعداً الى أعلى ويدعم الإله في صعوده يعتبر خيراً ، وكل ما ينحدر بثقله هابطاً الى أسفل ومعيقا الإله في صعوده يعتبر شراً .

كل الفضائل والشرور تأخذ قيمة جديدة ، تتحرّر من أسر اللحظة والتراب ، وتؤكد وجودها المطلق من خلال الانسان وقبله وبعده بصورة أبدية .

جوهر أخلاقنا ليس هو خلاص الانسان ، الذي يتغيّر ضمن الزمان والمكان ، وانما خلاص الإله الذي يظل - هو نفسه دائماً ، ذلك الإيقاع السرمدي المحارب من أجل الحرية ، عبر التدفُّق المتنوّع للتجسيدات والمغامرات الإنسانيّة .

نحن البشر تعساء ، عديمو القلب ، ضئيلون ، عدميُّون . لكن في داخلنا يكمن جوهر أسمى منّا يدفعنا بلا رحمة نحو الاعالي .

من داخل هذا الطين الإنساني تتدفق أغانٍ إلهيّة ، وأفكار عظيمة ، وحالات عشق جارفة ، واندفاعٌ يقظٌ وغامض بلا بداية وبلا نهاية ، وبلا هدف ، بل ووراء كل هدف .

ان الإنسانية مثل كتلة من الطين ، وكتلة الطين هي كل واحد منّا .

ماهو واجبنا ؟ ان نناضل من اجل ان تترعرع زهرة صغيرة على سماد جسدنا وعقلنا .

حارب من خلال الأشياء ، حارب من خلال الجسد ، حارب عبر الجوع وعبر الخوف ، حارب عبر الفضيلة وعبر الخطيئة لكي تخلق إلها .

كيف يبدأ الضوء من نجمة ثم يصب في العتمة الخالدة ويسير في مسيرة أبدية ؟

فالنجمة تموت لكن الضوء لايموت .

ناضل من خلال اللقاء المؤقت للقوى المتناقضة ، الذي يشكّل وجودك انت . لكي تبدع أقصى ما يستطيعه الفاني في هذا العالم... ان تبدع صيحة .

ان هذه الصيحة تترك للارض الجسد الذي انجبته ، وتتقدّم في مسيرتها وهي تعمل بدأب .

عشق جارفٌ يعبر الكون ، انه كالأثير : أقوى من الفولاذ وأرقّ من النسيم .

انه يقتحم ويعبر كل شيء ، يذهب وينعتق ، لا يخلد للراحة على المواقع لدفئة ، ولا يستعبده الجسد الحبيب . انه عشقٌ على أهبة الاستعداد للقتال ، يراقب البشر ، وهم يتحركون وينهدون كالامواج ، من وراء كتفي الحبيب ، يراقب الحيوانات والنباتات ، وهي تلتحم ثم تموت . يراقب الإله وهو يتعرض للخطر ، ثم يستغيث منادياً :

« انقذني » .

العشق!! هل لنا أن نطلق اسماً آخر غير العشق على هذه الإندفاعة ، التي حين تطوف ببصرها على المادة ، تسحرها ، وتبدي رغبتها في أن تطبع مظهرها الذاتي عليها . تتبيّن الجسد وتلتحم بتلك الصيحة العشقيّة المعلّقة هي الأُخرى به . وينجبا إبناً ويضيعا ، ثم يصيرا خالدَيْن عبر الإبن .

انها تقتحم الروح وتظهر رغبتها في أن تتوحّد معها ، والاّ نوجد انا وأنت . تعصف على بني البشر وتعبّر عن رغبتها ، وهي تحطّم الجسد والعقل . في ان تخلط كل الانفاس فتغدو ريحاً عاتية وتصيب الأرض بالهياج .

في اللحظات الحاسمة يدفع العشق البشر بقوة ليلتحم بعضهم بالبعض

الأحمر . سيتحم العدو والصديق . والطيب والخبيث . انه ريح أعمى منهم ، ومستقلة عن رغباتهم وأفعالهم .

نه نَفَس الإله . إنه تنفُّسه على الارض . يهبط على البشر كيفما يشاء . في هيئة رقص أو عشق أو جوع أو دين أو مذبحة ودون ان يستأذننا .

د خل سفينة الارض ، وفي تلك اللحظات الحاسمة يحاول الإله جاهداً ان يعجن مادة الاجساد والعقول ، وان يقذف بكل تلك العجينة داخل دوامته اللولبية القاسية ، وان يعطيها وجهاً.. وجهه هو .

لا ينهكه الغثيان ، ولا يتسرب اليأس الى احشائه الترابيّة المظلمة . يعمل ويتقدم . يلتهم لحمهم ، يتشبث بالمعدة وبالقلب . بالذكر وبالعقل .

انه ليس رب الأسرة الطيب ، لانه لا يقسم الخبز بالتساوي بين أبنائه . فالظلم والقسوة واللهفة والجوع هي إناث الخيل الاربعة التي تقود مركبته على ارضنا المضطربة هذه .

ان الإله لا يُصنَعُ أبداً من السعادة والرفاهيّة والعظمة ، وانما من الخجل والجوع والدموع .

في كل لحظة حاسمة تخاطر جماعة من البشر ، وهي تتقدم في الطليعة ، معيدة حقيقة الإله ، وهي تحارب حاملة على عاتقها كل مسؤوليّة المعركة .

ذات زمان مضى ، قام الكهنة والملوك ، والنبلاء والمتمدنون ، بإنشاء حضارات ، وحرروا الألوهيّة .

أما إله هذا العصر فإنه عامل متوحشٌ من الإجهاد ومن الغضب ومن الجوع ، تفوح منه روائح الدخان والنبيذ والعرق ، يلعن الآلهة ، ويجوع وينجب اطفالاً ، وينتابه الأرق فلا يجد الى النوم سبيلاً . يطلق صيحاته ويتوعد فيتردد صداها في الوديان والجبال .

لقد تغيّرت الرياح . إنّا نتنفس ربيعاً ثقيلاً ومليئاً بالبذور . الصيحات تعلو . من الذي يصيح ؟ نحن الذين نصيح ، نحن البشر . الاحياء والاموات ، والذين لم يولدوا بعد . لكن الخوف يداهمنا فجأة فنلوذ بالصمت .

إنّا نركن للنسيان بسبب الكسل والعادة والجبن ، لكن الصيحة تمزق احشاءنا مرة أخرى وكأنها نسر .

الصيحة لاتأتي من الخارج ، انها لا تأتي من بعيد ، كي يمكننا ان نتحاشاها ، انها تسكن في قلوبنا وتطلق نداءاتها .

«أحرق بيتك» هكذا ينادي الاله ، «أنا آت ، كل من له بيت لن يحظى بأن أحل ضيفاً عليه» .

«أحرق افكارك ، هدّم تأملاتك! كل من عثر على الحل لن يعثر علي» .

«اني احب الجوعى والقلقين والمتمردين . فهؤلاء يفكرون دائما في الجوع والتمرد ، وفي الطريق اللانهائي ، في أنا» .

«أنا آت ، دع زوجتك ، ودع ابناءك ، ودع افكارك ، واتبعني . أنا المتشرد الاعظم» .

«اتبعني! تقدم فوق الفرح والحزن ، فوق السلام والعدالة والفضيلة! تقدم! حطّم هذه الاصنام ، انها لا تسعني! وتحطم انت أيضا لكي استطيع العبور» .

النار! هذا هو واجبنا الاعظم ، في هذا العصر ، ووسط كل هذه الفوضى العديمة الاخلاق والآمال .

حارب عديمي الايمان! ان عديمي الايمان هم الهانئون والمتخمون والعاقرون .

ان كراهيتنا لاتقبل التسامح ، لانها تحتوي على ماهو أصلح وأعمق من مشاعر الاحسان مما يفتح الطريق واسعاً أمام الحب .

إنّا نكره ولا نتكيف . نحن غير عادلين بل قساة ومليؤون بالتوتر وبالايمان ، نطلب المستحيل كالعشاق .

فتأتي النار لتطهر الارض! ولتنفتح اكثر الهاويات رعباً بين الخير والشر ، لينتشر الظلم وليحل الجوع فيمزق احشاءنا . هذا هو خلاصنا الوحيد ولا خلاص غيره .

عصرنا هذا هو لحظة حاسمة وعنيفة . انه عالم يتحطم وآخر لم يولد بعد .
عصرنا ليس عصراً للتوازن . فلا مكان لفضائل كالنُبْل والتسامح والسلام والحب أن تجد لها فيه أرض خصبة .

إننا نعيش الإندفاعة الرهيبة ، نثب على الأعداء ، وعلى الأصدقاء الذين يتخلفون وراءنا ، يتهددنا الخطر في أُتون الفوضى ، نشرف على الغرق ، لا تسعفنا الفضائل القديمة ، ولا الآمال القديمة ، لا تسعنا النظريات والممارسات القديمة .

ان رياح الدمار تهبّ . هذا هو نَفَس الإله في عصرنا هذا .فلنذهب معه .
ان رياح الدمار هي إنجذابة الرقص الأولى لدوّمة الخلق . تهب على العقول والمدن ، تهدم الأفكار والمنازل ، تمر عبر الصحارى وتصيح «تهيّأوا... الحرب قادمة... الحرب قادمة!» .

هذا هو عصرنا ، خيراً كان أم شراً ، جميلاً كان أم قبيحاً ، غنياً كان أم فقيراً . نحن لم نختره ، هذا هو عصرنا ، انه الهواء الذي نتنفّسه ، والطين الذي مُنح لنا ، هو الخبز ، وهو النار .هو الروح!

فلنتقبّل الأمر بشجاعة . ان قسمتنا ونصيبنا هو الحرب . فلنشدّ الاحزمة على خصورنا جيّداً ، ولنسلّح أجسادنا وقلوبنا وعقولنا! ولنأخذ مواقعنا في ميدان المعركة!

ان الحرب هي السيد الشرعيّ لعصرنا .

وحده المحارب ، هو الإنسان الكامل والشريف في عصرنا ، لأنه هو وحده المؤمن بالنَفَس الأعظم لزماننا في حالات دماره وكراهيته ورغبته ، ممتثلاً للمشيئة المعاصرة لإلهنا .

ان تطابقنا هذا مع الكون هو الذي ينجب الفضيلتين العظيمتين : المسؤولية والتضحية .

علينا واجب معاونة الإله ، الذي يتفجر غضباً ، لكي يتحرّر بداخلنا وبداخل الإنسان ، وداخل الجموع التي تعيش في العتمة . يجب علينا أن نكون متأهبين

في كل اللحظات ، لكي نقدّم حياتنا في سبيله . فالحياة ليست هدفاً لذاتها وانما هي الأخرى أداة مثلها مثل الموت ، والجمال ، والفضيلة . أداة من ؟ أداة الإله الذي يحارب من أجل الحرية .

نحن كلّنا كينونة واحدة .جوهر واحدٌ مهدّد . لو ان روحاً في أقاصي العالم الذي ينحدر هابطاً سقطت ، فإنها تحطّم اثناء سقوطها روحنا أيضاً . لو ان عقلاً في أقاصي العالم يغرق في البلاهة فانه يملأ أصداغنا بالظلام .

لو ان شخصاً واحداً فقط ، يناضل في أقاصي الأرض والسماء . لو ان واحداً فقط كهذا ضاع ، فإن مسؤولية ضياعه تقع علينا . لو ضاع فنحن ايضاً سنضيع .

هذا هو الأمر الذي يجعل خلاص الكون خلاصنا ايضاً . ان تضامننا مع البشر الآخرين ليس ترفاً لحنان القلب ، وانما هو شكل عميق من أشكال الحماية الذاتية ، واستجابة لضرورة حقيقية.. ضرورة تأمين سلامة من يحمي ظهرك في الجيش وانت تحارب معه .

ان اخلاقنا تتصاعد الى آفاق أكثر سمواً . فنحن كلّنا جيش يحارب ، لكننا لانعلم علم اليقين ما اذا كنّا سننتصر أم سنهزم ؟

هل يوجد خلاص ؟ هل يوجد هدف لنعمل من أجله لكي نجد خلاصاً لانفسنا ؟

أم انه لايوجد خلاص ، اذ لايوجد هدف ، وكل شيء بلا جدوى ، وكل عطائنا الجماعي لا قيمة له ؟

لا هذا ولا ذاك . ان إلهنا ليس مطلق القدرة ، كما انه ليس مطلق الطيبة ، وليس واثقاً في نصره أو هزيمته .

جوهر إلهنا غامض ينضج في كل مرّة دفعة واحدة ، ربما يرجح إحتمال النصر بكل فعل شجاع نقوم به . ربما تكون كل هذه النضالات من أجل الخلاص والنصر أدنى من طبيعة الألوهية .

ومهما كانت الحقيقة فاننا نحارب بلا يقين . وفضيلتنا هي ألاّ نكون واثقين من مردود يحظى باحترام عميق .

كل الوصايا تبعث من جديد . نحن لا نرى ولا نسمع كما كنا نرى أو نسمع سابقاً ، ولا نكره أو نحب كما كنّا سابقاً . هكذا تتجدّد عذريّة الأرض .
يكون للخبز وللماء وللمرأة مذاق جديد ، ويكون للفعل قيمة جديدة لا حدود لها .
كل ما يحمل سمواً مؤقتاً كالجمال والمعرفة ، والأمل والنضال الإقتصادي ، وأعباء الحياة اليوميّة تبدو وكأنها هموم لامعنى لها . في كل مكان نقشعرّ ونحن ندرك أن النّفس العظيم المكبّل بالأغلال يناضل من أجل الحريّة .
لكلٍّ طريقه الخاص الذي يقوده للخلاص . البعض من خلال الفضيلة ، والبعض الآخر من خلال الشر .
لو أن طريقك الذي يقودك الى الخلاص يمر عبر المرض والنفاق والعار ، فإن من واجبك ان تغوص في اعماق المرض والنفاق والعار ، حتى تنتصر عليها ، ودون ذلك لن يكون لك خلاص .
ولو ان طريقك الذي يقودك الى الخلاص هو طريق الفضيلة والفرح والحقيقة . فان من واجبك ان تغوص عميقاً في الفضيلة والفرح والحقيقة ، لكي تنتصر عليها وتتركها خلفك ، إذ دون ذلك لن يكون لك خلاص .
إنّا لا نحارب شهواتنا المظلمة بفضيلة رزينة وشاحبة ومحايدة تسموعليها ، وانما بشهوات أخرى أقوى منها وأشدّ بأساً .
نترك بابنا مفتوحاً للخطيئة ، لانغلق آذاننا كي لا نسمع الحوريّات ، ولا نقيّد أنفسنا من الخوف الى سارية فكرةٍ عظيمة ، كما اننا لا نهجر السفينة ، ونختفي لنسترق السمع للحوريات ونقبّلهن ، وانما نتابع مسيرتنا ، ونختطف الحوريّات ونأخذهن الى السفينة لكي يسافرن معنا .
هذا هو تصوفنا الجديد .
الإله يصيح في قلبي : «أنقذني»
الإله ينادي البشر والحيوانات والنباتات والجمادات : «أنقذوني» .
إصغ الى قلبك واسمعه . حطّم جسدك واستيقظ : نحن كلّنا جسد واحد .

أحبب الإنسان لانه هو أنت نفسك .

أحبب الحيوانات والنباتات لانك كنت كذلك ، وهي الآن تتبعك مؤمنة ومتعاونة وخادمة لك .

أحبب جسدك ، فجسدك وحده تستطيع أن تكافح على هذه الارض ، وان تحوّل المادة الى روح .

أحبب عناصر المادة فالإله يتشبث بها وهو يحارب ، فحارب معه .

عليك ان تموت كل يوم ، وان تولد كل يوم ، وان ترفض ماعندك كل يوم .

فالفضيلة الكبرى ليست في ان تكون حُرّاً ، وانما في ان تناضل من أجل الحريّة .

لا تتواضع وتتساءل «هل سننتصر ؟ هل سنهزم ؟» بل حارب .

وفي كل لحظة من حياتك أجعل من مغامرة العالم مغامرتك .

هذه هي ايتها الرفاق وصايانا العشر الجديدة .

ج) علاقة الإنسان بالطبيعة:

ان هذا العالم بكل هذه السلسلة اللانهائيّة المتنوعة من الظواهر ليس وهماً ، ولا مسرحيّة متعدّدة الالوان لمرآة عقلنا العاكسة ، ولا واقعاً محضاً يعيش ويتشكّل بحريّة مستقلاً عن قوى عقلنا .

انه ليس الرداء المضيء الذي يرتديه الجسد الغامض لإلهنا ، ولا نصف الجدار المرئي المعتم بين الإله والسر .

كل هذا العالم الذي نراه ونسمعه ونتحسسه ، هو انمتاح للحواس الإنسانيّة ، وكلّه خليط إلهي للقوتين الكونيّتين العظيمتين .

احدى القوى تهبط وهي تطمح في ان تتبعثر وان تتجمّد وان تموت . اما القوة الأُخرى فانها تصعد على أمل ان تبلغ الحريّة والخلود .

هذان الجيشان ، الجيش المظلم والجيش المضيء ، جيش الحياة وجيش الموت ، ابداً يتصادمان والآثار المرئيّة لهذا الصدام هي الاشياء والنباتات والحيوانات والبشر .

ان القوى المتصارعة تتصادم ابداً ، تتعانق وتتعارك ، تنتصر وتهزم ، تتصالح ثم تبدأ في الصراع من جديد على امتداد الكون كلّه . من المرئي في حركة قطرة ماء الى مجرّة النجوم اللانهائيّة .

إن أدنى انواع الحشرات ، وأصغر الافكار ، هي معسكر كامل للإله ، حيث يتهيأ فيها جميعاً ويستعد لمعركة حاسمة .

في أقل جزيئات الارض والسماء أهمية أسمع إلهي ينادي : «النجدة!» .

كل شيء هو مجرّد بيضة في داخلها تكمن بذرة الإله القلقة التي تعمل ساهرة ، وتصطفُّ داخل البيضة وخارجها قوى لاحصر لها لتدافع عنها .

بنور العقل ، وبشعلة القلب ، أُحطم كل السجون التي تحبس الإله ، أبحث وأحاول وأدق على تحصينات المادة لأفتح فيها كوة ، ولأُنشئ عبر هذه التحصينات بوابة الخروج البطولي لإلهنا .

حارب... لاحق الظواهر بصبر وأناة لتطوّعها في قوانين ، وبذلك ستفتح طرقاً تمر على الهاوية ، وتساعد الروح على أن تجد مداها .

ضع نظام عقلك في النظام الإنسيابي للعالم . أحفر خطّة المعركة على الهاوية بوضوح . ناضل مع القوى الطبيعية ، ودعها تخضع للاقتران بهدف أعلى منها . حرّر الروح التي تكافح داخلها وتشتاق للإلتحام بالروح التي تناضل في أحشائك .

حينما يُسخّر الانسان ، وهو يناضل داخل الهاوية ، مجموعة من الظواهر لقوانين عقله ، ويبتدع لهذه القوانين قولاً جديراً بها ، فإن العالم يتنفّس ، وتنتظم الاصوات ، وتنضج ملامح المستقبل ، وتتحرّر كل الارقام المظلمة التي لا تحصى ، وتذعن وتستسلم للنوعيّة الغامضة .

إنّنا نتعجل ، بمساعدة عقلنا ، في ارغام المادة على السير معنا ، ونغير اتجاه القوى المتجهة الى أسفل ، واتجاه التيار ، ونحوّل العبوديّة الى حريّة .

إنّنا ونحن نخضع العالم المرئي من حولنا ، لانحرّر الإله فقط ، وانما نصنعه ايضا .

يصيح الإله «افتح عينك . أُريد ان أرى! أرهف السمع . أريد أن اسمع! تقدّم الى الأمام . أنت رأسي!» .

ان الحجر ينجو حين نرفعه من الطين ونضعه في بناء منزل أو حين ننقش عليه ملامح الروح .

البذرة تنجو... ولكن ماذا تعني نجاتها ؟

تعني : أن يتحرّر الإله الذي بداخلها ، فتزهر ، ثم تثمر ، ثم تعود مرّة

تعوى في التراب . فلنساعد البذرة على النجاة .

لكل انسان محيطه الخاص الذي يضم مايخصّه من أشياء وأشجار ، من حيوانات وبشر وأفكار ، وهو يتحمل واجب انقاذ هذا المحيط ، عليه وحده دون غيره تقع المسؤوليّة ، واذا لم يتم انقاذ المحيط ، فلا خلاص لصاحبه .

عليه مسؤوليّة إنجاز المهام الكبيرة المناطة به قبل موته ، ولن يجد للنجاة سبيلاً إن لم ينجزها ، لأن روحه مبعثرة وأسيرة هذه الاشياء ، التي يضمّها محيطه الخاص : أسيرة الاشجار والحيوانات والبشر والافكار . ولن ينجو بروحه حتى ينجز المهمات الكبيرة .

لو أنك عامل ، فأفلح الارض وهيّئها لكي تثمر . ان البذور تصيح داخل التربة ، والإله يصيح داخل البذور ، حرّره... انه ينتظر خلاصه على يديك ، ثمة حقل ينتظر خلاصه على يديك ، وثمة آلة تنتظر ان تبث فيها الروح . انك لن تجد الى النجاة سبيلاً حتى تنقذ كل كذلك .

لو انك محارب... أبعد عنك الإحساس بالرأفة ، لان الأسى لايدخل ضمن واجباتك . أقتل العدو بلا رحمة ، واستمع الى الإله يصيح من داخل جسد العدو :

«أقتل هذا الجسد فإنه يعيقني . أقتله لكي أستطيع العبور» .

لو انك حكيم ، حارب داخل الجمجمة . أقتل الافكار وأخلق أفكاراً جديدة . ان الإله يختبئ داخل الجسد . حطّم الفكرة وحرّره . أمنحه فكرة أرحب كي يقيم فيها .

لو انك إمرأة ، اتجه صوب الحب وأختر بجهد وتبصُّر مضنٍ من بين كل بني البشر والد أبنائك . لست انت التي تختارين وانما ذلك اللامتناهي ، الذي لا يتحطّم ولا يعرف الرحمة ، ذلك الإله الذكوري الذي بداخلك . أنجزي واجبك كاملاً . أنجزي واجبك المحتشد بالمرارة والعشق والشجاعة . قدمي جسدك كلّه ، جسدك المحتشد بالدماء والحليب .

قولي : هذا الذي أحمله في حجري وأرضعه من حليبي سينقذ الإله ، فلأعطينه ، دمي كلّه وحليبي .

السكينة:

روح الانسان شعلة متوهّجة ، طائر يقفز من غصن الى غصن ، ومن رأس ى رأس ، صائحا «لا أستطيع ان أستقر . لن أبلغ حد الإحتراق ولو بلغت فلا حد يستطيع إطفائي!»

فجأة يصير الكون كلّه شجرة من نار ، وبين الدخان والنار أقف مشتعلاً على قمّة لهب ، أقبض على ثمرة النار ، أعني النور ، ثمرة صافية ورطبة وهادئة .

ومن القمة الشاهقة أحدّق في الخط الأحمر الذي تصاعد الى أعلى . مرتجفاً ودامياً وفسفوريّاً ، وهو يزحف داخل التجاويف المبتلة لعقلي كحشرة تملكها لعشق .

ان السلالة والإنسانية والأرض ، والنظريّة والممارسة والإله ، ما هي سوى أطياف من تراب وعقل ، تصلح للقلوب البسيطة التي يدركها الخوف ، تصلح للارواح التي تتلقح بالرياح وتعتقد انها تتوالد .

من أين نأتي ؟ والى أين نذهب ؟ ما معنى هذه الحياة ؟ هكذا تصرخ القلوب وتتساءل الرؤوس وهي تقرع على فوهة الهاوية .

تحرّكت كتلة نار لتجيب . حتماً سيأتي يومٌ تطهّر فيه النيران الارض . وحتماً سيأتي يوم تقضي فيه النيران على الارض . هذه هي القيامة الثانية .

الروح لسان ناري يلعق ويصارع ، يشعل النار في كتلة من العالم حالكة الظلمة . وذات يوم سيصير العالم كلّه حريقاً .

النار هي القناع الأول والأخير لإلهي . ونحن نبكي ونرقص بين الذراعين العظيمتين .

أفكارنا وأجسادنا تتلالأ وتتألق . أقف هادئاً بين النارين . أقول وقوى عقلي ساكنة وسط الزوبعة : ما أقصر الزمان ، وما أضيق المكان بين النارين . وما أشد بطء إيقاع الحياة . إني لا أجد زماناً ، ولا أجد مكاناً ، لكي أرقص! ـ على عجل .

فجأة يصير إيقاع الحياة دوّاراً ، ويتلاشى الزمن ، وتدخل اللحظة في الدوّامة فتصير أبداً ، وكلُّ موضع سواء كان حشرةً أم نجمةً أم فكرةً يصير رقصاً .

لقد كان سجناً فتحطّم السجن ، وتحرّرت القوى الرهيبة التي كانت بداخله ، ولم يعد للموضع أيّ وجود .

هذه المرتبة العليا من التمرّن الروحي تسمى السّكينة ، ليس لأن مضمونها هو بلوغ أقصى درجات اليأس تطرّفاً ، أو أقصى درجات الفرح والأمر رُقياً واستحالة على الوصف ، وليس لأنها أقصى درجات المعرفة ، التي تترفع عن مخاطبة أقصى درجات الجهل العاجزة عن الحديث .

السّكينة تعني أن كل من قضى فترة تطوّعه على مستوى المهام الكبرى سيبلغ القمّة القصوى للمحاولة ، بعيداً عن كل مهمة ، حيث لم يعد يناضل بل يصيح وإنما ينضج كاملاً بصمت وصميميّة ، متوحّداً أبداً مع الكون . لقد اندمج بالهاوية وتصالح معها كما تتصالح بذرة الرجل مع أحشاء المرأة .

صارت الهاوية زوجته التي ينشغل بها ، يفتح ويأكل أحشاءها ويغيّر دمها . يضحك ويبكي ، يصعد ويهبط معها ولا يتركها .

كيف الوصول إلى أحشاء الهاوية لتجعلها تثمر ؟ ليس من السهل بلوغ الإجابة على ذلك . لأنها لا تستسلم للغة ، ولا تنصاع للقوانين ، لكل شخص خلاصه الخاص الذي يبلغه بحرية مطلقة .

فكما لا توجد طريقة للتعلّم لا يوجد مخلّص ليفتح الطريق ، ولا يوجد طريق ليُفتح .

فكل من يرتفع فوق مستوى هامته ، يستطيع أن ينعتق من عقله الصغير

حمى بالتساؤلات ، وان يقف شامخا بلا وجل وسط السكون العميق ... وناهياً ، صاعداً بلا توقف من قمة الى قمة ، مدركاً ان الارتفاع ... يغني وهو معلق على الهاوية هذه التعويذة السحرية المفعمة بالفخر :

ومن بإنه واحد ، حام للحمى ، ثنائي الميلاد ، مدجج بالسلاح ، ... متعدد ، عظيم القدرة ، لا كلّي القدرة ، محارب على الحدود القصوى ، ... ومبرطور كل القوى المضيئة ، المرئيّة منها والمستترة .

أومن بالأقنعة المؤقتة التي لاتحصى ، والتي اتخذها الإله عبر القرون . وتبيّن خلف التيّار المنساب بلا انقطاع ، وحدة لا تنفصم عُراها .

أومن بكفاحه الشاق والمُضْني ، الذي يطوّع المادة ويجعلها تثمر كنبع يهب الحياة نباتات وحيوانات وبشراً .

أومن بقلب الإنسان ، تلك التقاة الترابيّة ، حيث يناضل حامي الحمى ليل نهار ضد الموت .

« النجدة... النجدة » هو نداؤك يا سيّدي ، أسمعه بداخلي كما يسمعه الأسلاف والذين لم يولدوا بعد ، وكل الأجناس بل الأرض كلها برهبة وفرح .

طوبى لكل من يسمع النداء فيهب ليخلّصك يا سيدي وهو يقول : « أنا وأنت وحدنا لنا وجود » .

طوبي لكل من ساهم في إنقاذك فيتوحد بك يا سيدي وهو يقول :« انا وانت كيان واحد » .

وطوبى ثالثا لكل من يحمل على كتفيه دون أن ينحني ، ذلك السر العظيم المتسامي والرهيب : حتى هذا الواحد لا يوجد وجوداً محضاً .

* * *

نيكوس الذي لم يساوم*

بقلم: هيلين كزنتزاكيس**

زوجي.. كان قاسيا كمكتبة

تعرفت على نيكوس عام ١٩٢٤ . وكان لقائي الأول به مجرد صدفة غريبة ، اذ دعتني صديقتي ماريكا وشقيقتها كيتي للتعرف عليه ، ذلك لأن الشقيقتين كانتا تعتبرانه شخصا مدهشا . وكانت زوجته السابقة غلاتيا تعيش حينئذ مع إفييري ، وأذكر انها اخبرتني حينها «انه لا يوجد شخص في [illegible] يستطيع [illegible] يحكي مثل كزنتزاكيس ، لكنه قاس كمكتبة» ، ويومها قلت لنفسي [illegible] سبب واحد يدفعني للتعرف عليه ، اذ ما هي فائدتي لكزنتزاكيس [illegible] في الحادية والعشرين من العمر ، ثم إني غير مثقفة ويتيمة . فقد توفي [illegible] في سن مبكّرة ، ولم أكمل سوى المرحلة الثانوية ، ولم اتجاوزها لأن [illegible] كانوا يرددون «ان اليتامى لايتعلمون» .

خلاصة القول لقد تعرفت على نيكوس خلال إحدى [illegible] رحلة الى بانديلي (ضاحية على اطراف مدينة اثينا) . (كان [illegible]

---

* عنوان المقال من إختيارنا ، وهو في الواقع عنوان الكتاب الذي ألفته هيلين عن زوجها [illegible]

** نشر هذا المقال في مجلة «تاخذوروموس» أي (السريع) اليونانية صيف [illegible] بالذكرى المئوية لميلاد زوجها نيكوس كزنتزاكيس

المساء . ومنذ اللحظة الأولى وقع في غرامي ، في نفس تلك الليلة.. ليلة لقائنا الأول ، وقال لي «لن نفترق أبداً » و «لو اردت الذهاب فلن اتركك تذهبين» . كان ذلك قبل يوم واحد من عيدي (عيد الاسم عند اليونانيين) .

كنا نتخاطب بصيغة الجمع

في البدء كنت أنظر الى كزنتزاكيس كأستاذ ، ولم يدر في خلدي اطلاقا بأني سأقع في حبه . كان شخصا ناضجا بينما لم أكن بلغت سن النضج بعد . ومنذ ذلك اليوم بدأنا التخاطب بصيغة الجمع . واستمر ذلك حتى وفاته . لقد تعودنا على ذلك حتى صارت صيغة الجمع ، التي لا يستخدمها الناس في حياتهم اليومية ، صيغة المفرد بالنسبة لنا .

استمرينا على التخاطب بصيغة الجمع كما بدأنا في بداية تعارفنا . كنت ، ليتكم تعلمون ، أشعر باحترام واعجاب شديدين نحوه . في البداية صرنا صديقين وانتظرني حتى بلغت مرحلة النضج فاتخذني زوجة له ، لكن صيغة الجمع بقيت ثابتة في تخاطبنا المشترك . وفي بعض الاحيان كان يبدأ حديثه بصيغة المفرد وبعد ان يسترسل قليلا ينفجر ضاحكا . كانت صيغة المفرد تبدو لنا غريبة ، وفاقدة للحنان ، هكذا اعتدنا على صيغة الجمع .

زوجتي.. رفيقتي

منذ عام ١٩٢٨ صرت أعيش معه كزوجة . لكن زواجنا الطقوسي لم يأت إلاّ بعد ١٨ عاما ، اذ لم يعقد علي طوال تلك المدة ولم يضايقني ذلك اطلاقا . لا أستطيع ان أتصوّر حالنا لو ان والديّ كانا على قيد الحياة . بالطبع لم يكن معقولاً ان اترك بيتي وأذهب لأعيش مع رجل ما . لكن المعجزة حدثت . ان الأجيال التي تعيش الآن تستطيع ان تفهم مثل هذه الأشياء . ولكن في ذلك الزمن كان وضعنا يعتبر امراً خارقا . وهكذا تركت منزلي وذهبت لأعيش معه ولم يبدر من أيّ أحد ما يعكر ذلك . حتى أعمامي الذين ينحدرون من أصول

رستقراطية ظلوا يستقبلونه بترحاب حين كنا نزورهم في منازلهم رغم انهم كانوا ضيِّقي الأُفق . ولم يغلق أيّ أحد بابه في وجهي بسببه ، بل كانوا يكنون له احتراما خاصا ، ويعتبرونه شخصا مختلفا ، لكن كزنتزاكيس نفسه لم يقدمني لأيّ شخص بعبارة «هذه صديقتي» وانما كان يقول لدى تعريفي «هذه رفيقتي.. هذه زوجتي» .

في تلك الفترة كان كزنتزاكيس كثير الأسفار ، ولقد رافقته في بداية علاقتنا الى القدس وقد سمح لي وليّ أمري بالذهاب معه بعد ان اصطحبت معي صديقتين كن السبب ، كما اسلفت ، في تعرفي على كزنتزاكيس . وحينها وجهني نيكوس بالذهاب الى صحيفة «كل يوم» لأحصل منها على بطاقة صحافية ، تساعدني على السفر ، مقابل أن أكتب فيها مشاهداتي في القدس . وحين عدنا إلى اليونان نشرت فعلا مقالات في الصحيفة المذكورة ، كما نشر هو مقالات في صحيفة «القول الحر» .

وحدي في باريس

في عام ١٩٢٦ اعتقدت ان نيكوس سينتدب للعمل في احدى الصحف في باريس ، فذهبت إلى صحيفة «كل يوم» التي وافقت على أن اكون مراسلة لها في باريس مقابل مرتب شهري قدره ثمانمائة فرنك . وهكذا توجهت الى باريس لكن كزانتزاكيس لم يستطع السفر ، وظل يكتب لي يوميا على أمل ان أجد له طريقة تساعده على الوصول الى باريس .

لقد احتفظت بكل الخطابات التي كتبها لي طوال حياته ، والتي تبلغ الخمسمائة خطاب تقريبا . كان هو أيضا يحتفظ بخطاباتي الى أن احرقتها لأنها عديمة الأهمية . وحين توفرت له فرصة السفر الى باريس لم يكن يملك مالا . وكان يعاني من فقر مدقع ، كما لم يعطوه نقودا للسفر ، وهكذا لم يأت فبقيت هناك وحدي ، لكنه سافر في فترة لاحقة الى مصر وسيناء مع صديقه الرسام كالموخا ، أما انا فواصلت تزويد الصحيفة من باريس برسالتين

كل اسبوع ، وحين اعتلت صحتي وعاد نيكوس الى اليونان رجعت انا ايضا .

بعدها سافرنا الى روسيا ، ومن هناك كنت اكتب لصحف فرنسية . أمضينا عدة شهور في روسيا وانتقلنا من موسكو الى بيكوفو ، ثم نزلنا على طول نهر الفولغا مرورا بجورجيا وارمينيا والقفقاز . ومما سهل سفرنا ان الروس سمحوا لنا السفر بالقطارات والبواخر مجانا ، كان ذلك عام ١٩٢٨ . فاتني هنا أن أقول إن كزنتزاكيس سافر بمفرده الى سيبريا ، والسبب هو أن مرافقنا «بناييت» انفق كل ما كانا جمعاه هو وكزنتزاكيس من الاموال بفضل المقابلات وسيناريوهات الافلام التي اعداها وقاما ببيعها للروس . لقد ارتكب كزنتزاكيس خطيئة كبرى حين قال لصديقه «يجب ألاّ يصرف كل منا بطريقته . سأعطيك النقود وأترك لك أمر صرفها» ، لكن صديقه بدأ يسأل كل من يزورنا «كيف تحتمل مثل هذه الاسنان البشعة ؟ سأعطيك نقودا لتغيير أسنانك» أو «ما هذه النظارات السيئة التي ترتديها ؟ سأعطيك نقودا لتشتري غيرها» . وفي أحد الايام فاجأنا قائلا «لقد نفدت كل النقود ولا نملك ما يكفي للعشاء» . لقد نفدت كل النقود التي اعتقدنا انها كانت ستكفينا لزيارة اليابان ايضا . حزن نيكوس لذلك ، لكنه لم يغضب ، غضبت أنا من نيكوس لأنه لم يتكلم في الأمر . وقلت له «ألا تكلمه!ألا تكلمه!» فأجابني بهدوء «وما قيمة ذلك . إني أتكلم حين يكون إصلاح الأمور ممكنا» . هذه القضية لم تؤثر على الصداقة التي كانت قائمة بين كزنتزاكيس وبناييت الى ان جاء السبب الكافي لإنهائها ، والسبب هو ان بناييت كان يمر حينها بأزمة حادة ، حتى انه لم يستطع الكتابة . اما كزنتزاكيس فكان يكتب المقالات ثم يأتي بناييت ليظهر اعجابه بها ، ويذيلها باسميهما . وبعد حين اتضح ان بناييت كان يستبعد اسم كزنتزاكيس من المقالات وينسبها لنفسه . ولما كان كزنتزاكيس حتى ذلك الحين غير معروف خارج نطاق اليونان ، فان المقالات لم تنشر أبداً وضاعت وكان هذا السبب كافيا للقطيعة بينهما .

والسبب الأساسي لمغادرتنا روسيا هو أن كزنتزاكيس وصديقه كانا بديا تعاطفا مع أحد الشيوعيين الطاعنين في السن لظلم حاق به من السلطة . ويبدو أنه كان تروتسكيا . أما أنا شخصيا فقد أعجبت كثيرا بموسكو . لقد واصلنا جولتنا وتركنا روسيا الى تشيكوسلوفاكيا ثم الى المانيا . وفي بعض الأحيان كان نيكوس يملي عليَّ فأكتب ، لكنه كثيراً ما كان يعطي الأصول المكتوبة كلها للناشرين ونبقى نحن صفر اليدين .

في أحد الأيام قلت له أن تراجيديا (قسطنطين باليوبولوس) لاتعجبني فمزقها أمام عيني ، لكني حين قلت له إن مقدمة الأوديسا لا تعجبني ولا أفهمها أجابني قائلا : «لست على حق... سأتركها كما هي» ولم يمسسها بأذى .

حين اعطاني كتاب «تصوف» عام ١٩٢٤ لم أندهش لدرجة الجنون ، لكنني ما زلت اعتبره المفتاح الأساسي لكل أعماله . لقد كان العمل الأول الذي طلب مني أن اقرأه . حينها لم أكن قد بلغت سن النضج بعد . وكنت أقرأ روايات فيكتور هيجو وغيرها من الروايات الفرنسية .

يبدو انه كان قد تعب من زوجته الأولى غلاتيا وأراد ان يسلك طريقا معاكسا تماماً . أتصور أنها كانت أرهقته بمحاولاتها المهووسة ، وهي تلح عليه المرة تلو الأخرى لكي يصير شيوعيا ، ويذهب ليقتل ميكاذو ، لكنها هي نفسها لم تكن شيوعية . إني لا أرى فيها ما يدل على الشيوعية ، فهي سيدة برجوازية طيبة ، ولست أنا التي تقول ذلك وانما شقيقتها هي التي كتبت ذلك . لقد كانت امرأة تقدمية تطالب بالحرية للمرأة ، وقد كتبت موضوعات جميلة عن المرأة .

كانت غلاتيا جميلة وجذابة ، ولا يستطيع احد الجلوس اليها ولو لبرهة قصيرة دون ان يحبها ، رغم ما تطلق من شتائم حين تغضب ، لكنها على أيّ حال لم تستطع العيش مع كزنتزاكيس . كانت دائمة القلق ولم تستوعب ما كان يكتبه كزنتزاكيس . كانت تعتقد ان كل ما يكتبه هو مزيف ، وانه لا

يتقن فن الكتابة!! من الذي لا يعرف الكتابة؟ هل كان على نيكوس كزنتزاكيس ان ينتظر غلاتيا لتعلمه الكتابة!؟.

وحين أعيد الآن قراءة أحد كتبها فاني استبعدها من قائمة الكتاب العظام، ولكن في ذلك العصر كنا نراها عظيمة.

أحبها نيكوس حبا جماً، لقد ساعدته كثيرا بأن دفعته في اتجاه التقدم. ولم يصبح شيوعيا، لكنا لا نستطيع ان نتكهن بمصيره حينذاك في هيراكليون (عاصمة جزيرة كريت اليونانية) لو لم تكن غلاتيا معه. كانت غلاتيا ضد الأوضاع السائدة في عصرها، كانت تدخن وترتدي البنطلون، وكانت جذابة بصورة تفوق الوصف.

لكن نيكوس لم يكن يميز بين النساء اللواتي عبرن حياته، أحب من أحب حتى النهاية، وحفظ جميلها عليه، هن أيضا أحببنه، وغادرن الحياة، واسمه على شفاههن، لكنه لم يرتبط بهن مرة أخرى. نهاية كل علاقة كانت نهاية أبدية لا يبقى منها سوى الحنان الانساني. أما العلاقات الجنسية فكانت تنقطع نهائيا، ويبقى نيكوس بعدها سماءً صافية. كان زوجا وفياً وكان ذلك شيئا من طبعه. هكذا كان مع غلاتيا، ومع إيللي لامبروزو الفيلسوفة، وراشيل مينخ الشاعرة، وإيريس لاتفي المدهشة.

يقولون عنه انه لم يحب النساء بدليل انه قدم خلال كتاباته نماذج سلبية عنهن، لكن ألم يكتب في «تقرير الى الجريكو» قائلا: «ان كل ماهو خير في حياتي منحتني إياه النساء».

كانت ايلي لامبروزو قد اشترطت عليه إنها لن تزور منزلنا إلاّ في غيابي، فرد عليها «ولن تدخلي منزلنا ابدا الاّ اذا كانت هيلين حاضرة». وهكذا فإنها لم تأت أبدا الى منزلنا. اما كزنتزاكيس فكان يقول لي بين حين وآخر «سأذهب لزيارة إيللي». وكنت أرد عليه «اذهب يا عزيزي»، لم اكن اشعر بالغيرة تجاه ماضيه، فهذا شيء يخصه وحده.

لم نفعل أيّ شيء لنمنع أنفسنا من الانجاب، إلا أننا لم ننجب، ربما

كانت حالتنا الصحية هي السبب ، لكن نيكوس إعترف لي ذات يوم ـ انه ـ بو ـ ـ خف بنتا فانه ما كان ليستطيع ان ينام نوما هادئا . ولكان حاله مثل الكريتيين متقدمين في العمر ، وكان سيسأل « متى عادت ؟ » و « الى اين ذهبت ومع من ؟ » ولعجز عن الكتابة لانشغال عقله بها . كان سينزعج لأسباب اخلاقية ، ويتحول الى كريتي حقيقي . لقد اعترف لي بكل هذه الاشياء التي لا تصدق .

كانت حياتنا مرحة ، ولم يكن يغضب ابداً . أتذكر انه غضب عني مرة واحدة ، لكن غضبه لم يدم أكثر من دقيقة واحدة . كان يزعجه ان يرتدي قميصا لذلك كان يرتدي بدلته على البيجاما عندما نخرج للنزهة . فقلت له ذات مرة « ماذا سيقول الناس... سيقولون إن هذه المرأة تعتني بنفسها ولا تعتني بزوجها » ، فرد قائلا « لقد جلبتي الكدر الى هذه النزهة » . لكني واصلت اصراري قائلة « من الآن فصاعداً يجب عليّ أن اراقبك لأرى كيف ترتدي ملابسك » ، وهكذا عدنا ادراجنا الى البيت . كان الناس يعرفونه ويحبونه ويحترمونه . كان رزينا يستحق الحب .

من الذكريات التي لا تنسى أننا قابلنا بيرفيلي ذات يوم في شارع « استاذيو » في أثينا . كان بيرفيلي يتحدث كل يوم في الاذاعة ضد نيكوس متهما اياه بموالاة منظمة « إيام » ومناصرة البلغار ، وغير ذلك من التهم . اندفع بيرفيلي نحو كزنتزاكيس وقال له « يا عزيزي نيكوس لا تصدق ما اقوله في المذياع . انها الضرورة والحاجة . يجب ان تعلم إني اكن لك كل حب » . ثم انحنى وقبل كزنتزاكيس الذي لم يغضب منه ابدا . ولو كنت مكانه لقلت لبيرفيلي « ألا تخجل أيها المسكين .... إنك مجرد بصقة .ما هذا الذي تقوله الآن!! » .

لم يكن يملك ذاكرة سوء . ذات يوم عثرنا بين حوانجنا على نحت من الفضة للثائر اليوناني كالوكتروني ، وكانت لي رغبة شديدة في أن اعلقه على جدار منزلنا . لكن نيكوس قال لي انه ينوي ارساله للكاتب ميلاس ، الذي الف كتابا عن كالوكتروني . فقلت له « هل سترسله لمن يكيل لك الشتائم المرة تلو الاخرى!! ؟ » فأجاب « كتابه جيد... بل هو كتاب عظيم » .

عشنا فقراء

حين كانت تنتابه الرغبة في الكتابة كان يجلس على مكتبه ، أما في الأسفار فكان يكتب على سريره . لم يكن وجودي يزعجه رغم زلاتي الكثيرة . أذكر انني ناديته يوما من الطابق العلوي قائلة «نيكوس... كيف تُكتب كلمة الوراثة ؟ » فأجابني على سؤالي ، وبعد قليل ناديت أساله عن معنى احدى الكلمات فرفع قلمه الى أعلى قائلا : «الى متى ؟ » فاجبته «الى الابد » وأضفت «هل تريد ان أعد لك قهوة ؟ » فأجاب «نعم » .

لم يغضب يوما ، ولم يقل لي لقد اضعت تسلسل افكاري . كان يرفع قلمه ويقول «الى متى ؟ » كان يتمتع باخلاق رفيعة ولم يكن يلقي على عاتقي المشاكل التي تضايقه . مواردنا الاقتصادية كانت محدودة . صحيفة «كل يوم » هي الوحيدة التي انتظمت لبعض الوقت في اعطائه مرتبا شهريا حين كانت تستكتبه . لقد عشنا فقراء . وصدق كزنتزاكيس في ما يردده أهله الكريتيين من قول وهو : «حين تكون بصحبة رفيق جيد فان الفقر والجوع لا يعنيان شيئا » .

استغرق بناء منزلنا في جزيرة ايجنه زمنا طويلا . لقد بنيناه على مراحل ، وساعدتنا الاسفار في ان نقتصد لنكمل بناءه ، اما الطعام فكان يكفيه القليل من الفواكه .

صار قديسا

حين أُعيد له اعتباره أطلق زفيرا عميقا وقال«لقد جاء متأخراً ، وهو لايهمني الآن على الاطلاق » . وكان حينها يعاني من المرض ، اما انا فقد حلّقت عاليا من الفرح لأن الكريتيات الجميلات صرن يزرننا . كان يقول لي «لا تصدقيهم يا عزيزتي... انهم لايدرون ما يقولون » . كان قد تخلى عن المظاهر الخادعة ، واقسم انه صار قديساً خلال سنواته الاخيرة . صار يستمتع

بحساء السمك ، وبالتين الذي يقطفه كل صباح ، وكان يقدس الشمس وعنب ، لكنه كان يحترق في قرارة نفسه من اجل اكمال اعماله .

أراد ان يعيش اثنتي عشرة سنة أُخرى . فلقد ظل مقتنعا بانه سيعيش مثل غوته الالماني اثنين وثمانين عاما ، لكنه مات في الرابعة والسبعين وليس في الثانية والسبعين كما اشيع . لقد وجدنا خلف لوحة عائلية في المنزل التاريخ الحقيقي لميلاده والذي هو عام ١٨٨٣ وليس ١٨٨٥ كما كانت شقيقته تقول .

كيف ضاعت جائزة نوبل ؟

كان يقول لي معلقا على الانتقادات والاساءات التي تصدرعن ميلاس «دعيه يا عزيزتي يقول ما يريد فلا أحد يهتم به»... إلا أن هذا السلوك الاخلاقي لم يشفع له امام اعدائه ، فبذلوا جهدهم لحرمانه من جائزة نوبل للآداب . وقتها كان صاحب صحيفة «الإستية» سفيرا لليونان في ستوكهولم ومن هناك واصل شن حربه على نيكوس . الجميع كانوا يعلمون انه يستحق الجائزة وقد فقدها بصوت واحد . كتب لي البير كامو يقول ان كزنتزاكيس «يستحق هذه الجائزة مائة مرة أكثر مني» . كتب نيكوس وهو على فراش الموت خطابا لالبير كامو يهنئه بنيل الجائزة . وكنت انا من اوائل الذين كتبوا يهننون الشاعرين اليونانيين سيفيريس وإليتيس بعد حصولهما على جائزة نوبل .

بعد مرور عشر سنوات على وفاته اصدرت كتابي «الذي لايُستاوم» . وحتى ذلك الحين لم يكن في استطاعتي أن أمس خطاباته . لكني بدأت أولاً باستنساخها على الآلة الكاتبة لكي لا يضيع منها أي أثر شخصي ، ولكي لا أرى خط يده . ثم أخذت من الخطابات كل ما يساعدني على إضاءة كزنتزاكيس الكاتب وترجمته الى اللغة الفرنسية . بعد ذلك اصدرت الكتاب بالفرنسية ولم أُترجمه لليونانية الا بعد عشرين عاما .

هو نفسه طلب مني ان اكتب . قال لي «أكتبي انت ، سيقولون الكثير من الاكاذيب عن اسطورة كزنتزاكيس التي ستلوكها الألسن . اكتبي انت لانك تعرفيني» . وكنت ارد عليه «هذا مستحيل.. هذا مستحيل» .

ليقولوا ما يشاؤون ، غير أن الحقيقة هي ان كزنتزاكيس كان متدينا تدينا عميقا . بحث عن الاله لكنه لم يقل.. ها.. قد وجدته . وآمنت به ، انه يؤمن بقوة أعلى منا تحركنا . كان يبحث لاكتشاف حدود دورنا ، وماهية وجودنا على هذه الارض . وكان معنى الاله بالنسبة له هو ان نكون أحسن مما نحن عليه . أنا ايضا أرى أن هنالك قوة بداخلنا تدفعنا الى الكمال .

لم انحدر من بيت متدين وكنا نذهب انا ونيكوس الى الكنيسة يوم الجمعة العظيمة «من ايام عيد الفصح» . تعجبني كثيراً خطبة الكنيسة ، وأحب شعائر الاسبوع المقدس لدرجة الجنون ، خصوصا حين يكون هنالك من يجيد التلاوة .

يقولون انه كان شيوعيا ، لكنه في الحقيقة كان معارضا لكل المؤسسات السائدة . كان يريد للانسان ان يتحرر بارادته ، وان ينعتق من أسر المؤسسات الزائفة .

عشت كل هذه السنوات لان ذكراه تعضدني . سألونا ذات يوم «هل لكم أبناء ؟» فأجاب «كتبي هي ابنائي» .

انني مناضلة وأُعضّد الحق قدر المستطاع . أود لو استطيع النضال من اجل شيلي ومن أجل افريقيا ، هناك حيث يعانون الجوع . لقد احببت اليونان لكنني عانيت الكثير فيها . كان يمكن ان أُقدم شيئا ذا قيمة . لقد كان نيكوس يقول لنا «احمدوا الله انكم مرضى ، إذ لو كنتم أقوياء لأدرتم العالم رأسا على عقب» .

الفهرس